غبار على جدار الوعي

بقلم حاتم إبراهيم سلامة

غبار على جدار الوعي

بقلم

حاتم إبراهيم سلامة

٢٠٢٥

غبار على جدار الوعي

الكاتب

حاتم إبراهيم سلامة

٢٠٢٥

3

مقدمة

الثقافة تنير العقل، وتكسب الإنسان معرفة وخبرة ودراية بالحياة، وكلما توغلت في الثقافة كلما نضج عقلك واستنار فهمك، وصار لك وعي وإدراك ورشد وفكر ثاقب، قادر على الاستيعاب والتأمل والتنبؤ والتوقع.

وكم حاولت في كثير من مكتوباتي ومقالاتي أن أنتقي وأهتم بما يصحح مفاهيم الناس ومداركهم في الحياة، وأنتشلهم بقلمي من كثير من الموروثات الخاطئة والمفاهيم المحظورة التي تختلف تمام الاختلاف عن الحقيقة، التي لو عرفها الإنسان لبان له النور وظهر له الحق وابتعد كثيرا عن الإسفاف العقلي والضلال الفكري الذي يفسد رأيه وعقله ورشده.

والجهل موبقة عظيمة تهوي بالأمة في هوة سحيقة فلا يكفي أن تجد الإنسان الجاهل في كثير من المواقف لا يعرف، وإنما المصيبة حينما تجده يفتي فيما لا يعرف والمصيبة الأكبر حينما تجده يصر على أن ما يدركه من جهل وغباء هو الحق الواضح الأبلج والمنهج الأصح الأقوم.. وتلك مرحلة التي تتبع الجهل وهي مرحلة اللاوعي.. والذي إن تمكن من أمة فقل عليها السلام.

فقدان الوعي هي المنجز الاستعماري الكبير الذي استطاع العدو تحقيقه في حربه مع أمتنا، فلأن يخلف اللاوعي في العقول خير له من أن يحتل البلاد ويقهر العباد، فاللاوعي هو العمل السحري الذي يقدم له ما يطبع فيه منا على طبق من ذهب.

الأنظمة المستبدة تحرص قبل الاستعمار أن تؤصل لجذور اللاوعي، لأن حضوره ومكنته من العقول، يضمن لها مزيدا من التمكن والوقت والاستمرار والتسلط والدوام.. لأن الوعي إذا حضر وقاد العقول فلن يسمح بمثل هذه المهازل أن تحتد على أرض تعيش عليها عقول واعية.

وهنا وعبر هذه السطور أقدم ما أحاول به أن أجلي الغبار عن العقول وندربها على فهم الحقائق، حتى تقوم للوعي جذور ومنابت وثمار تنعش اليقظة العقلية.

حاتم إبراهيم سلامة

سنجرج- منوف

٢٠٢٥-٥-٢٦

حائر بين الرأي والقيم

أتدري ما الذي ينقص كثيرًا من الكتاب والمفكرين العلمانيين واليساريين اليوم؟ إنهم لا ينقصهم اعتدال الفكر والفهم بقدر ما ينقصهم الصدق والإنصاف والخلق والأدب والاحترام.

إن هذه الطبقة التي نشاهدها اليوم من المنفلتين فكريًا، مشكلتهم الكبرى ليست في هذا الانحراف العقلي، وإنما مشكلة أكثرهم أنهم يخاصمون معاني الخلق والفضيلة، وهم لا يحبون إقامة الحوار مع خصومهم، أكثر من حبهم لتركيعهم تحت حد المقاصل أو نصبهم على أعواد المشانق.. لقد أعلنوا فشلهم الكبير في قبول الآخر، واتخذوا من القمع والتحريض منهجًا في معاملة الخصوم، هكذا رأيناهم مؤخرًا وشهد العالم كله عليهم.

من قديم وأنا أقول: لا بأس أن يتغير الرأي والفكر والفهم، ولكن الذي لا قبول فيه عندي، هو تغير القيم والأخلاق والتفريط في المبادئ.

إننا نعظم الأخلاق، لإيماننا أن الأخلاق منبع كل خير والطريق لكل فضل، ومن يفقد الأخلاق، تسفل قيمته مهما امتلأت رأسه بالعلم والفكر.

تخيل اليوم لو أنك تحاور صنديدا من صناديد العلمانية، وهو لا يكذب ولا يظلم ولا يفتري ولا يسخط، ولديه رصيدا وافرا من الأدب والذوق والخلق والفضيلة، كيف يكون إذن حاله؟ وكيف تكون الوقائع معه، بل كيف سيكون احترامه للدليل والرهان إذا ما بدا جليًا أمامه؟

هل يرفض ويجادل ويمكر؟

لن يفعل شيئا من هذا لأنه منصف وصاحب أخلاق يُعظم الفضيلة.

قرأت مؤخرا شيئا عجبا، ولو أنه حدث اليوم لقامت قائمة السلفيين وغيرهم من كثير من المأفونين، الذين يحلوا لهم تكفير الناس وتفسيق المخالفين، وإسقاط كل حق يتمتعون به، لمجرد خلاف في الفكر والرأي.. هل تتصور أن أعلام السنة رووا الأحاديث التي هي عماد الدين ومناط التكليف عن شيعة؟

نعم لا تتعجب، لقد ثبتت روايتهم للحديث وأخذهم عن علماء الشيعة، لثبات علمهم وأخلاقهم.

لقد كانت الأخلاق هي الرباط التي والوثيقة التي دعت علماء السنة أن يرووا عنهم وهم مطمئنون للصدق والأمانة التي لن تنجر يوما إلى اعتماد كذب أو تورية حق من الحقوق.

يقول القائل:" فقد كان عدي بن ثابت بن قيس عالم الشيعة وقاضيهم، وإمام مسجدهم، وقد وثقه الدارقطني وأحمد بن حنبل والنسائي، وقال أبو حاتم الرازي عنه إنه صادق صدوق، وكذلك كان منصور بن أبي الأسود الليثي الكوفي الخياط من أئمة الحديث، وروى المحدثون أحاديثه لصدقه وعدالته وهو شيعي أمين، بل كان الإمام أبو الحسن علي بن عاصم الواسطي من طبقة شيوخ الإمام أحمد بن حنبل، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثين ألفًا فلا يبقى في بغداد عالم ذو مكانة إلا شهد مجلسه، وقد جاء في كتاب الكفاية للخطيب البغدادي أن المعتصم الخليفة العباسي كان يختلف إلى مجلس أبي الحسن علي بن عاصم هذا، فسمعه يروي حديثًا عن عمرو بن عبيد، فقال له: أتروي عن عمرو ابن عبيد وهو قدري، قال: نعم أروي لأنه ثقة! وكان عبيد الله بن موسى العبسي من كبار علماء الشيعة وروى عنه الإمام البخاري ما رواه، وكذلك روى عنه أبو حاتم الرازي، وأبو بكر بن شبه وكثير من الفضلاء! وقد وثق يحيى بن معين كثيرًا ممن شاهدهم من أعلام الشيعة، وقال عن كل من تحدث عنهم إنه صدوق، فإذا كان أهل السنة يقبلون روايات الخوارج والقدرية لأمانة من قالوها وثقتهم بهم، فهم لروايات علماء الشيعة أسرع، وبهم أوثق"

إن كثيرا من المتدينين اليوم تشعر حينما تتعمق في الثقافة الدينية، أن هناك قصور في الفهم قد أصابهم، وأن موجة عتية من العداء وعدم التمييز أصابت العديدين منهم، فهذه الجحافل السلفية التي تهاجم

الصوفية اليوم وترفض وجودها، لو أنهم رجعوا لكتب الأئمة الكبار الذين يرددون أقوالهم قبل قول الله سبحانه ورسوله، لوجدوا أنهم قبلوا عدول هذا الطريق، واستشهدوا بأقوال أئمته وأوليائه، بل كان الحديث عنهم ذكرًا معطرًا بالرحمات والغفران، في الوقت الذي يكيل لهم هذا الشباب القاصر تهم الشرك والكفران، هكذا فعل ابن تيمية مع أئمة التصوف كالمرسي أبا العباس وحجة الإسلام الغزالي.

وعودا على بدء وقبل الشطط في الرفض، والتطرف في الاستنتاج، فإنني أقرر حسب دراستي أن التشيع عالم فسيح متسع، وفي فِرقِهِ ما يقارب أهل السنة والجماعة ويشابههم في الفقه والمعتقد كالزيدية والإباضية، وليس الحديث يخص المغالين والمفرطين، أو يدعو للأخذ عنهم.

خدعة التخلف الحضاري

مما يضاف لحسنات الحقبة الناصرية، تصديقها على طلب الأزهر في إنشاء كليات خاصة بالبنات في اللغة العربية والدراسات الاسلامية والاجتماعية والمعاملات والإدارة عام ١٩٦٢م بطلب من الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

ولكن لما كانت هذه الكليات تقتصر فقط على الفتيات دون الفتيان، فقد كانت مادة دسمة لحديث التيارات العلمانية التغريبية في مصر وعلى رأسها الدكتور طه حسين الذي لم يفوت الفرصة للنقاش والاعتراض على هذه الخصوصية الأنثوية في القرن العشرين، وفي زمن الاختلاط، بحجة أنها صورة تجسد معنى التأخر الحضاري الذي تشهده مصر.

ورد الأزهر على هذا الاعتراض وعلى رأسهم الشيخ عبد اللطيف السبكي عضو هيئة كبار العلماء بقوله: أن الجامعة بهذا الانفراد تلبي حاجة الأسر التي لا تحب ولا ترغب أن تزج ببناتها وسط الشباب، ولأن الدكتور طه لا يمكن أن ينكر تلك المشكلات والمآسي التي نجمت عن اختلاط الجنسين، والتي ضربت طبيعة المجتمع المصري المسلم المحافظ في قيمه وتقاليده وعقيدته والتزامه الأخلاقي.

كان رد الشيخ السبكي تقليديا يدعوا للجدال والنقاش وإمكانية الرفض بحجة تطوير المجتمع وخروجه من دهاليز الماضي، حتى جاء الرد الحاسم والقاصم والمعجز من التربوية الكبيرة أستاذة أسماء فهمي (١٩٠٣ - ١٩٥٦) وهي أول مديرة مصرية لمعهد التربية العالي للمعلمات عام ١٩٤٨والأستاذة التربوية الرائدة في علم النفس والتربية التي درست التربية في مصر وانجلترا، وسافرت الى الولايات المتحدة الامريكية في عام ١٩٤٧ لإتمام أبحاثها ودراساتها، وساهمت بدور فعال في إنشاء كلية البنات بجامعة عين شمس، وتركت العديد من المؤلفات الهامة في مجالات علم النفس و التربية.

ردت الأستاذة على سيادة العميد بردها المفحم لا في عظم علمها ومنطقها، وإنما باستشهادها الواقعي بما وجدته في أميركا منبع التغريب ومعلم التمدن الحضاري الذي يتغنى به التغريبيون.

لقد وجدت أن هناك في أميركا ١٥٤ كلية خاصة بالبنات، وأننا لن نكون رجعيين في مصر لو أنشأنا جامعات وكليات ومعاهد خاصة بهن، كما يتوهم الدكتور طه، لأنه لا ينكر أن أمريكا ذات سبق حضاري، فالحضارة الحقيقية هي التي تلبي حاجة الإنسان وقد أدركت أمركا ما في الاختلاط من شرور عادت بمآسيها على المجتمع فيسرت لرافضي الاختلاط منافذهم التعليمية التي تلبي رغباتهن.

وأنا هنا لن أتكلم عن شرور الاختلاط الجامعي، وما جره من ويلات ومصائب، ولكنني أتحدث وألفت إلى الفزاعة الغربية التي يتقول ويتغنى بها كل من أراد أن ينعت طبائعنا وتقاليدنا وديننا بالتخلف الحضاري، و أن الغرب مثال التقدم والازدهار لا يعرف مثل هذه الأمور، بينما نحن في الحقيقة لو بحثنا كما بحثت الأستاذة أسماء فهمي، لرأينا أن الغرب بريء من هذه الادعاءات، وأن ما يتقولونه عليه افتراءات غير موجودة.

ولعل هذا يذكرني بقصة الأحزاب الدينية واعتراض الكثيريين على نشأتها، وأنها سبيل لعرقلة مسيرة الوطن وارتقائه ونموه، وأنها طريق لقيام العنصرية التي تنهش بناء المجتمع، ودعوة هؤلاء إلى التشبه بالغرب العلماني الذي يستظل فيه الجميع بنداء الوطن على حساب أي دين أو عرق أو جنس، وحينما بحث الباحثون، في معالم الواقع الغربي، فإذا بهم يجدون أحزابا كثيرة تأسست على أساس ديني، ولم يمنع أبدًا قيامها، أن تحافظ على وحدة الوطن والمواطنة وقبول الآخر والتعاون معه لترسيخ سبل وعوامل النهوض والتقديم.

لا تسلم أبدا بشبهة أي علماني وهو يستشهد لك بالغرب في كثير من الدعوى والآراء، لأنك لو رجعت إلى المجتمع الغربي لوجدت أن هذه الدعاوى زائفة، وأنها قد قامت في الغرب وأقرتها حكوماته، ورأت أنها لا تحيل بينهم وبين التقدم والركب الحضاري في شيء.

اللعب بورقة الهوية

كانت مناسبة نقل المومياوات التي جلجلت لها مصر ٢٠٢١، مناسبة لا شك مبهجة وجميلة ومفرحة، لكنها لفتتنا إلى شيء مهم جدا كان قرين الحديث عن المناسبة الكبيرة.

يظهر بوضوح لكل ملاحظ ومتأمل، أن حقد العلمانيين والملحدين تجدد أو تأجج على الإسلام والهوية الإسلامية، وظنوا أن الظرف والمناسبة تخدمهم أمام ما نُردده مرارا وتكرارا من أنه - أي الإسلام- مكون أساس من مكونات الشخصية المصرية، ودين الدولة الرسمي، ولغته هي لغتها الأولى، وقرآنه هو كتابها المقدس.

نعم لقد كان حادث نقل المومياوات، فرصة ذهبية لكثير من العلمانيين، في محاولة خبيثة ومفضوحة ومكشوفة، ليوجدوا صراعا بين الإسلام والفرعونية، التي هي حضارة مصر القديمة، ليلبسوا على الناس أن الإسلام عدو لمصر، وأنه ليس هويتها الأصيلة التي تعبر عنها، وعلى المصري أن ينتمي لحضارته وجدوده وأصوله، لا أن ينتمي لدين وافد ودخيل عليه.

وهذا المنطق يمكن أن ينطلي على فئة واحدة فقط، وهي الفئة التي تتنكر للدين، وترفض وجود الألوهية، يمكن لهذا الكلام أن يؤتي

أكله عل أمثال هؤلاء، لكن مصر المسلمة المتدينة التي يعلو في سمائها صوت الأذان كل يوم خمس مرات، لا يمكن أن يجري عليها هذا الهراء والتلبيس.

ما المشكلة أن أكون فرعونيا، وتنتمي جذوري للفراعنة، وهذه حقيقة واقعة، فهم الجدود والسلف القديم لهذه الأمة الحاضرة، ولكن هل يعني هذا أن الانتساب لهذه الحضارة، يلغي الإيمان والإسلام في الاعتقاد والانتماء؟

أعتقد أن من يحاول إثارة مثل هذا التصور، إنما يقوم بعملية تهريج ولغو فارغ..

لقد أسلم سلمان الفارسي، فهل ألغى الإسلام نسبه وجنسه، وأسلم بلال الحبشي، فهل تنكر الإسلام للونه وأصله؟

كانت الأسماء المطروحة يقبلها على الإسلام مع الاحتفاظ بجذورها، فلا عيب ولا منكر في ذلك.. كان هناك.. سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي.

لا تعارض إذن ولا نكران في الإسلام لهذه الجذور، لأن الإسلام شيء أكبر من المقارنة، ومجرد وضعه في كفة مع حضارة سالفة وزمن قديم، عبث وهراء، لأن الإسلام دين ومعتقد وسلوك وأخلاق

ومنهج ومعاملات وعبادات وروحانية وقيم وفضائل ومنظومة كاملة تدير الحياة وتجعل المسلم منقادا لله..

لا ضير أدا، أن تباهي بالفرعونية وتباهي بالبابلية، وتباهى بالساسانية، لكن أن تقول هويتي فرعونية، فهذا خطل، لأن ما تركوه من أثر لا يرقى لأن ينافس الإسلام في كونه هوية.

فرق هائل بين دين جاء من رب العالمين، أنار ظلمات الحياة، وبين آبائك وأجدادك الذين تعتز بهم.

أريد أن أقول: إن المسألة لا ترقى حتى لوضع المقارنة، وليس فيها أي مجال للتفاضل، فلا يلتفت إلى هذا، إلا قوم يحقدون على الإسلام، ويحاولون أن يوقظوا في قلوب المصريين كل ما يسبب سخطهم على دينهم، وهذا محال في بلد تضج عاصمته بألف مئذنة، لا بألف مسلة فرعونية.

قام مؤخرا أحد العلمانيين المتطرفين، وهو يصور للقراء أن الإسلام وفقهاءه اتهموا الفرعونية بالكفر والوثنية، وحاولوا هدم الهوية المصرية.. لكن أحد النابهين رد عليه بقولة ضاربة مفحمة فقال:

"الإسلام لم يطمس الهوية المصرية بدليل أن الآثار الفرعونية بقيت على حالها لأكثر من ١٤٠٠سنة دون أن يمسها أحد.. فلم يبن

مسجد على معبد.. ولم يهدم تمثال لأنه من الأصنام.. المشكلة فيك وليس الإسلام نفسه.. اعدلوا هو أقرب للتقوى."

ولكن أنى يكون هذا العدل من قوم يفترون على دين الله.

لا يفوتني أن أذكر بأن طه حسين من أوائل من أحيا هذا التصور المقيت المرفوض، وأحيا هذا الصراع الواهي الموهوم، وكان قوله الشهير المقزز: لو كان الإسلام حائلا بيننا وبين فرعونيتنا فعلينا نبذه.

الإسلام لا يمنع أبدا أن يعتز المسلم بأصوله وماضيه، لكنه يرفض أن يكون داعية للعنصرية والتباهي على خلق الله.. كما أن التراث الفرعوني مجرد آثار ومشاهد وبعض ما يشير إلى التفوق المعماري والحضاري، لكن لا يمكن أن ترقى آثارهم لأن تكون الأخلاق والعقيدة والسلوك والتعاليم التي تهذب الروح وتهدي الحيارى كما فعل الإسلام.. فأي الأمرين يستحق لقب الهوية.

والدولة حينما احتفلت بهذا الحدث، لم تقل للناس أن دينكم فرعوني، والفراعنة آلهة مصر، وإنما هو مجرد عمل يخدم السياحة وموارد الدولة.

أما الذين يحاولون إنشاء معركة لطعن الإسلام باسم الوطن وهوية مصر، فهي محاولة بائسة يائسة، لأن الإسلام في قلوب المصريين،

والدولة كما تهتم بآثار الفراعنة، تهتم بالآثار الإسلامية وتحيي الحفلات في المناسبات الدينية..

رجاء.. ابتعدوا عن خديعة الوطنية، واللعب بورقة الهوية.

وأحب أن أقول لكم أيها العلمانيون:

ستظل الكعبة المشرفة أعظم مكانة في قلوب المصريين من آلاف المعابد الفرعونية، وسيظل الجسد النبوي الشريف في المدينة المنورة، أعظم وأكرم وأرقى وأثمن في نفوس المصريين من ألف ملك وملك من ملوك مصر القديمة، وسيظل القرآن الكريم أرفع وأطهر وأسمي في نفوس المصريين، من نقوش الفراعنة على جدرانهم.. فقولوا لي بالله عليكم: عن أي هوية تتحدثون؟

ولا يمنع هذا أن نقدر في ذات الوقت حضارتنا القديمة ونبتهج بتاريخها وتراثها خاصة إذا كان له دخل في بناء مصر الحديثة كمورد من أهم مواردها الفاعلة القوية والداعمة لمستقبل مشرق وغد أفضل.

محنة الذوق العام

أذكر أنني لست من المغرمين بصوت الست أم كلثوم، ولا أحب صوتها ولا أتناغم معه، اللهم إلا في النذر اليسير من بعض أغانيها الوطنية، ولكن ياللداهية الدواهي، لو أعلنت هذا الرأي ورددت هذه المشاعر، فهناك ألسنة ستتهمني بقلة الذوق ورداءة السماع، والجهل بفهم الغناء الأصيل، وربما اتهمني بعضهم بأنني مختل العقل لا أفهم أي شيء، ومن ثم لابد أن أكتم هذا الرأي في نفسي، حتى لا أجافي الذوق العام.

الذوق العام يقر ويعلن أن عبد الناصر زعيم وملهم وبطل عظيم ومنقذ المصريين، بينما رأيي أنه طاغية جبار وزعيم مهزوم، لكنني بين الجماهير أخشى الإعلان عن هذا الرأي، لأنه سيناقض الانطباع العام الذي شكله الاعلام وأحسته الجماهير التي لا يحكم الوعي والعلم والمعرفة حياتها، أو يسير عقولها.

عانينا كثيرا ونحن نوضح للأمة أن طه حسين كان في فكره ومؤلفاته حربا على الله ورسوله، ولكن للأسف لا يصدقنا الناس ويناطحوننا في إعلاننا، لأن الذوق العام والثقافة العامة التي شكلتها الدولة، تقضي بأن طه عظيم من العظماء وأديب الأدباء، وأن أي إنسان

يهاجمه أو ينتقده عدو للعقل والعلم، بل وربما متطرف الفكر، إرهابي الفهم والمزاج.!

منذ أيام كتبت جملة آمنت بها، ورأيت فيها ميزان العقل الكامل، وكانت كما قلت فيها: (كما يوجد شيء اسمه اختلاف الأذواق، كذلك يوجد شيء اسمه الذوق العام)

ولقد كنت أشير بهذه الجملة إلى صراع كبير نجده في الحياة، بين وجهات النظر المختلفة والآراء المتباينة، وأنه مهما كان اختلافها، إلا أنها لابد أن تخضع أو تراعي ما يُسمى بالذوق العام.

ولكني حينما أعملت الفكر، وجدت أن القضية أخطر وأكبر من ذلك بكثير، فلقد كنا ننادي أن يكون المرء حرًا في رأيه وتعبيره ونظره، لا يرهب شيئا ولا يخشى معترضا، ولا يهاب ناقدًا، ولا يعير مخالفا أي اهتمام، فالمهم أن يعبر عما يجيش في صدره من آراء ووجهات نظر وميول وأهواء.

ولكن قبل أن يكون حرًا بهذا المعنى، يجب أن يعرف أنه حينما يصطدم رأيه مع الذوق العام، فإنه سيجر على نفسه ويلات وويلات، بل موجات وموجات من النقد والذم والتسفيه والتقليل.. حتى وإن ناصره البعض، فلن يغنوا عنه شيئا، أو يدفعوا عنه تهمة، لأن الذوق العام له سطوة طاغية وهالة جاسمة، والذين يناطحون الذوق العام ولا

يسمحون له أن يعوق أو يكتم أو يحجز آراءهم، لا أعرف هل أصفهم بأنهم أحرار، أم أتهمهم بأنهم يفتقدون الحكمة؟!

والذين ينسجمون مع الذوق العام ويكبتون نظرتهم للأشياء خوفًا منه، لا أعرف هل أتهمهم بأنهم جبناء أم أصفهم بأنهم حكماء؟!

ربما تؤمن ويؤمن معك فصيل كبير بأن العقاد كان أسلوبه معقدا وخال من الروح وفيه تقعر شديد، لكن من الأفضل أن لا تُعبر عن هذا أو تصرح به، خشية أن يصطدم مع الذوق العام، الذي يقرر أن العقاد عملاق، من الجيد وأنت تشعر أن كتب محمد أحمد الراشد ثقيلة على النفس، وأسلوبها مُشتت، أن لا تعبر عن هذا الشعور، وإلا أخرجك محبوه من الملة، لا لأنك نقدت أسلوب كاتب، ولكن لأن هذا الكاتب محسوب على تيار ديني.

مجتمعاتنا دائما تقيم وزنا وهالة للذوق العام، ولا تسمح لأحد أن يخترقه أو ينقلب عليه في شيء، حتى في عقول المثقفين الذين يفترض أنهم أحرار الفكر، إلا أن طبيعتهم المجتمعية التي نشؤوا عليها لا تفارقهم، حتى لو كانوا فلاسفة.

أما المجتمعات الغربية، فإن لها انطباع آخر، فلا شيء يعترض حريتك ورأيك وفكرك وحتى شذوذك، لأن الحرية لها قدسية أقوى من قدسية الذوق العام.

في بعض المؤسسات لا تستطيع أن ترتدي ما تريد من لباس تشعر فيه بالراحة والانبساط، لأن الجو كله في مناخ رسمي يفرض عليك الانضباط بالبدلة ورباط العنق، وهو الذوق العام الذي يحرمك حتى من راحة الجسد.

ثم هناك نقطة مهمة وهي، فساد الذوق العام وصلاحه، فليس معنى أنه الذوق العام لغالبية المواطنين أنه يكون الحق والصواب.. لأن هذه الجماهير العريضة يمكن جدا أن يكون قد شيدت ذوقها وتكونت عناصره على باطل وجهل وخطأ.. ومن ثم يعافها الذوق السليم، وهذا ما تراه في القطاع العام والطوائف الشعبية من الناس التي تستلذ بأغان هابطة وتقوم على الضجيج والكلمات القبيحة السيئة، ذلك لأن ذوقهم العام أقامهم مناخه على تقبل هذه النوعية من الكلمات، وأهل آذانهم لسماع هذا اللون من الموسيقى.. والتي لا يمكن أبدًا لصاحب الذوق السليم أن يشعر معها وفيها بأي متعة أو لذة وانسجام.

إن الذوق العام محنة كبيرة لذوي العقول، إما أن يجاروه أو يعترضوا عليه، وفي كلا الأمرين شر، فالأولى يعاني المرء من وأد حريته، والثانية يعاني المرء من سفه المعترضين وطعن المنكرين.

إن الأمة التي تريد أن تنهض، لابد أن ينهض ذوقها العام، الذي يُصلح كثيرا من مواطن عطبها وفسادها، فتقوم بإصلاحه وتهذيبه وترقيته ببرامج وخطط ونقاشات وإجراءات يمكن لها أن تغيره، فهو ليس قدس الأقداس أو له ثبوت الأهرام.

المعتزلة ليسوا كفارًا

هل تعلم أن أكثر من (٣٠) رجلا روى عنهم البخاري ومسلم كانوا من القدرية المعتزلة، ورغم بدعتهم لم ير الشيخان ضررا في الأخذ عنهم إذا كانوا ثقة صادقين؟!

وهل تعلم أن الإمام أحمد قال: لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل البصرة؟! وقد كانوا من الأفاضل والمحدثين المعتبرين.

ومما يجب علمه.. أن قدماء المعتزلة عُرفوا بالفضل والعلم، وأنهم لم يريدوا بما ذهبوا إليه إلا الخير، وذلك ما أوصلهم إليه اجتهادهم، وأدّاهم إليه حرصهم على تنزيه الله وتوحيده، وحرصهم كذلك على حماية الدين ورد كيد الطاعنين فيه وشبههم، ولقد عرف لهم هذا أهل السنة، وإن جرى ذمهم على ألسنتهم، فإنما ذلك للتحذير من المنهج المنحرف الذي سلكوه، لا قدحا في نياتهم ومقاصدهم.

ويعدونها من الفرق الضالة، لأنها خالفت ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولا يعني هذا أنهم كفار أو مخلدون في النار.. يقول عنهم القاسمي في مؤلفه (تاريخ الجهمية والمعتزلة) الذي أنصفهم فيه إنصافا كبيرا: "إنهم من المجتهدين وأن ميدانهم من فروع

الفقه في الدين، وكيف لا يكونوا من المجتهدين وهم يستدلون في براهينهم بالكتاب والسنة؟! وقد ذهبوا في كل مباحثهم لغاية تنزيه الله تعالى وخدمة التوحيد، ولا شك أنهم أخطأوا بمنظار أهل السنة لأن أمور الاعتقاد لا اجتهاد فيها وإنما هي جلية ثابتة."

ومن أراد التزود من الحديث عن براءتهم، فليقرأ كتاب القاسمي وينظر كيف كانوا؟ ويعرف الفرق بين سلفهم وخلفهم، والمتقدمين منهم والمعاصرين.!

غاية القول: أننا سقنا هذا التنبيه، ليكون مقدمة لحديثنا عن المأمون الخليفة العباسي الذي ظلمته تصوراتنا الخاطئة، ولأنه من أوقد فتنة خلق القرآن التي كانت بلاء على الناس، حتى ننصفه أو نبين عذره في الأمر واجتهاده فيه، لأن الكتب التي صورت هذه المحنة، وروت ما نزل بالإمام أحمد جعلت بعضا منا ينظر إلى المأمون والمعتصم والمعتزلة في هذا الوقت، نظرتنا لليهود والملاحدة أو الكفار من عبدة الأصنام وليس الأمر على هذا أبدا.

لقد جاءت الكتب التي روت محنة أحمد في فتنة خلق القرآن وهي تحاول تصوير الحاكم وقتها بالمارق المبتدع الملحد في الدين المجترئ على الله، كما صورته بأنه الطاغية الجبار الذي أرهب الناس بالسيف وحملهم على غير مذهب أهل السنة بالعسف والبغي.. وربما حدث ذلك ولكن برؤية أخرى وتصور مغاير!

لقد حمل المأمون الناس بالسيف على القول بخلق القرآن، واعتناق ما اجتهده من حوله من شيوخ المعتزلة، ولكن تعذيب الإمام أحمد لم يكن في عهده وإنما في عهد المعتصم، الذي أخذ بوصية أخيه قبل موته بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، ولكون المعتصم رجل حرب فقد أخذ الوصية بظاهرها فاعتقل وعذب وشرد المخالفين، ولكن لك أن تعرف أن الأمر لم يكن حمل الناس على الكفر والالحاد في دين الله، وإنما كان غاية هؤلاء الخلفاء هو تنزيه الله تعالى، وتنقية التوحيد دون أن تشوبه شائبة، نعم فما كانوا يفعلونه من هذه الحملة إنما كان قصدهم فيها تنزيه الخالق ونصرة الدين حسب ما ساقهم إليه اجتهادهم! إذ يرون أن القرآن مخلوق وليس قديما لأنه لو كان قديما لشارك الله تعالى في القدم وهو محال.

يقول الدكتور شلبي: "والمنصف ربما استطاع أن يتلمس العذر للمأمون، لأنه لم ير المسألة تمسه، فلو كانت تمسه لعفا وصفح كما هو حاله وخلقه، ولكنه رأى المسألة أعمق بكثير، رآها مسألة إسلامية تتعلق بصميم العقيدة، ورأى أن من لم يعترف بها يصبح خارجا عن الدين! فأعلن أن من واجبه وهو خليفة للمسلمين يقوم بشؤون دينهم ودنياهم ألا يستعمل في أمور الدولة هؤلاء الخارجين، وأن من واجبه أن يحمي جماهير الناس من فكرتهم التي يراها مارقة كافرة، وقد زاد سخط المأمون على المحدثين، لجمود موقفهم، ولعدم دفاعهم عن آرائهم بالمنطق أو بالمنقول، ومن ثم استشهدوا لغضبه وإيقاعه بهم، وقد وضحت المشكلة

كاملة وموقفه منها في كتابه الذي أرسله إلى نائبه في بغداد، والذي لو قرأهما المسلم لتبين له كيف كان الرجل غيورا على دين الله وأن حملته ما كانت إلا في سبيل الدين.!"

المراجعات المائعة

يتفاوت أهل الفكر في عزائمهم وحماسهم وتقويماتهم من شخص لأخر حسب التربية والنظر والدين والصدق مع النفس والتحرر من المقيدات والظروف والضغوط، خاصة تلك التي تواجههم إذا ما قرروا أن يغيروا أفكارهم ورؤاهم ومذاهبهم.

ربما تتوغل في فكر من الأفكار، أو مذهب من المذاهب، وبعد فترة من الزمن، ومع مزيد من المعرفة والاطلاع، يتبين لك أنك مخطئ، وأنك لم تكن على صواب، وأنك كنت على شاطئ الحقيقة، لم تتوغل بعد في بحرها العميق الذي تدرك به كنهها وغايتها.

بعض الناس يُسمي هذا تطورًا طبيعيا للمثقف، لكنني أعتبره هداية وردة عقلية للحق، وبصيرة يمنحها الله تعالى لهذا المثقف الذي انحرف كثيرا في تصوراته، ولو كان الأمر على ما يصفونه بالتطور، لكان كل من ولج دنيا الفكر على هذا الشطط وهذه الجفوة للحق والحقيقة والصواب وإنصاف الخيارات الصادقة المتزنة.

نعم ولانقسمت كل دنيا المفكرين إلى قسمين حسب مفهوم التطور المعرفي، قسم قبل الإحاطة الثقافية الكاملة، وقسم بعدها ينكر فيه

صاحبه ما كان يتبناه بالأمس، لكن ارتصاص الكثيرين من المؤيدين للحق من أول يوم في ميدانه، يرفض نظرية التطور، ويؤكد أن هداية الله شملتهم في ابتدائهم.

الراحل الدكتور محمد عمارة، ارتمى ابتداء في أحضان الماركسية لظروف بررها، وأوشك الرجل مع وجوده في عالمها أن يكون من فرسانها الكبار، لكن الله تعالى أراد به الخير، فاعتدل مساره إلى الانتصار للإسلام والدفاع تعاليمه وقيمه التي تخاصمها الماركيسية، ومن هذا الاعلان وهذا التحول، لم يخش الرجل على مكاسبه ومقدراته التي حققها، ولم يخش على مستقبله المرتقب الواعد في هذا الطريق، لأن الحق عزيز في نفسه وأحق أن يتبع، وخرج ليعلن على الدنيا كلها، براءته مما كان عليه بمؤلفات وكتابات تمحوا ما سلف له من سطور خطها في خندق الماركيسية!

الكاتب الألمعي خالد محمد خالد طنطنت له الدنيا كلها حينما أصدر كتابه من هنا نبدأ، وفرح به الماركسيون كثيرا وكرموه في المحافل والندوات والمنتديات، وتحدثوا عن كل سطر في كتابه، وتفاخروا به خاصة لكون الكلام، صادرا عن شيخ أزهري، أي وشهد شاهد من أهلها! فلما منّ الله عليه بالبصيرة والرجعة، لم يتردد خالد في إعلان اعتذاره وبراءته من أفكاره، وكان عنيفا في انتصاره للحق، عنيفا في رفضه للباطل، وأصدر كتابه الشهير (الديمقراطية في الاسلام) الذي كفَّر به

عن كل ما قدم من أفكار في كتابه الأول من هنا نبدأ.. ولم يفكر في ضياع المكتسبات التي حققها، والمكانة التي ارتقاها وأنعم بها عليه من خاصموا ملتهم وتنكروا لتراثهم.

وأمام ما رأينا من عمارة وخالد، كانت هناك صور مقابلة، لبعض المفكرين والأدباء الذي غيروا من آرائهم وأفاؤوا إلى الحق بعد نزوغ طويل، لكنك أمام هذه الرجعة تكون حائرا، لأنها تكون رجعة مواربة، وغير مباشرة، أو بمعنى آخر، لم يكونوا كهؤلاء الفرسان الذين خرجوا على الدنيا كلها معتذرين عن أفكارهم متبرئين منها، بمؤلفات ومقالات ومحاضرات، لقد كان كل ما فعلوه فقط، هو رفضهم أن تطبع كتبهم مرة أخرى ، والرد على من سألهم عن أفكارهم القديمة، بردود كما قلت مواربة أو باهتة لا تستوضح منها شيئا، ويمكن أن تؤول بتصورات مختلفة، وظنون متعددة، فطه حسين الذي يعده العلمانيون ودعاة التغريب رائدهم ورمزهم، كانت له توبة ورجعة، واستطاع راحلنا الكبير الدكتور محمد عمارة أن يستوضح هذه الرجعة، ويدلل عليها في كتابه المثير (طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام) لكننا ومع هذا البيان، لم نجد لطه حسين عزيمة الأبطال وجرأة الأحرار، في التبرؤ مما كان عليه، كأن يخرج على الملأ معتذرا، أو يصدر كتابا خاصا، يتنكر فيه لماضيه، ويكون براءة قوية وحجة عصية له أمام الله تعالى.

انظر مثلا إليه في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) والذي طبع عام ٣٨ وكان أكثر كتبه انبهارا بالغرب وحضارته، لقد ظل محجما عن

طباعته مرة أخرى، وحينما سئل عنه قال : " ده كتب سنة ٣٦، قدم أوي وعاوز يتجدد، ويجب أن أعود إليه، وأصلح فيه بعض حاجات وأضيف" ورغم أن شيخنا عمارة، اعتبر هذا الكلام من طه على أنه تغييرا لرأيه، إلا أنه والحق يقال، لم يكن فيه الوضوح الكافي الذي يجعلنا أو يجعل غيرنا يكون على يقين من هذا، ولعل ما فعله طه في كتاب الشعر الجاهلي حاضرا في تصورنا، فقد أعاد طبعه باسم آخر، وهو (في الادب الجاهلي) وحذف منه العبارات القاسية الصادمة، والسطور التي شكك بها في المعتقدات الاسلامية الواردة، وهو عمل محمود وطيب، لكننا كنا نريد بطولة الآيبين للحق، وعزيمة تهد ما سلف، وبراءة تنكر ما كان، وهو نفس ما فعله علي عبد الرازق في كتابه الاسلام وأصول الحكم، حين اكتفى ببعض إشارات لتغيير رأيه، ومنع طباعة كتابه مرة أخرى.

ولعل القوم هنا كانوا يخشون على مكانتهم ومكاسبهم التي حققتها لهم آراءهم المخالفة للصواب، ولعل ضميرهم كان مستريحا لمجرد استنكار أعماقهم لها دون المجاهرة والاعلان، أو تصوروا أن البراءة مما كان ينتحله المرء من فكر سالف، خرق للمروءة وشين للعقل، وحالة لا تليق بمفكر مسموع الكلمة مرموق المكانة.. الله أعلم.

خناجر الماضي

اليوم تحديدًا وعلى صفحات بعض الأصدقاء، رأيت تشبثا كبيرًا بالماضي، وتعييرًا فجا لأصحابه بما سلف لهم من أخطاء أو آراء أو مواقف.

إنهم يستوحون ويؤمنون بكلمات (نجيب محفوظ) ويطبقونها عمليا حينما قال: (الماضي الذي يتوارى بمكر أحيانا كاللص، ولكنه لا يموت، ثم يبعث بغير دعوة ولا رغبة)

لقد قام أحدهم ونشر مقالا قديما في صحيفة الدستور للأستاذ (محمد القدوسي)، تحت عنوان (مصر المغسولة بعطر عبد الناصر) وقال عنه معلقا: (ياريت اللي يقابل الأستاذ محمد القدوسي في تركيا ولا قطر يبقى يفكره بالمقال ده)

وكم كنت أتمنى أن أقرأ المقال، لكن صورته باهتة، وخطه غير واضح، ولا يظهر منه غير العنوان وصورة عبد الناصر، ولكن غرض الصديق كما يبدو من كلماته، أنه يريد أن يظهر القدوسي بأنه منافق لا مبادئ له، ويفعل اليوم ما كان ينكره بالأمس، أو أنه كان يطبل للظالمين، ويسبح بحمد الديكتاتورية، أو شيء من هذا القبيل.. تماما كما فعل بعض

الأصدقاء، حينما تحدثت عن كتاب (ثورة يوليو الأمريكية) للراحل الكبير (محمد جلال كشك) فأسرع وبحث في بطون الصحف، لينا ولني مقالا قديما لجلال كشك يُثني على الحقبة الناصرية، ويمجد زعيمها.

وأريد أن أقول:

إن المفكر أو العالم يمكن أن يكون له رأيان، قديم حديث، لكنه نادرا ما يكون له ثلاثة آراء، هنا فقط ومع التغيرات الثلاثة يمكن لك أن تتهمه بالنفاق والتريب وقلة الاتزان والتشكيك في مصداقيته وكلمته ومبادئه.. أما أن يكون على مبدأ ثم يخالفه في الغد، فما يمنع أن يكون قد اتبع الحق بعد أن تكشف له رسوب الضلال، وأوحال ما كان غارقا فيه من أوهام وضلالات.؟

بعض هؤلاء الناس أخشى أن يطلع علينا يوما وقد جمع أحدهم بعضا من الحجارة والتماثيل ليقول لنا هذه الحجارة والتماثيل التي كان يعبدها عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وزعيم الموحدين، يا من ترفعونه للسماء وتباهون به الدنيا في عدله وخوفه من الله.. لقد كان من عُباد الأحجار.!!

نعم لا أتعجب أن يخرج أحدهم ليقول ذلك، لأننا في زمن أصبنا فيه بعلل عقلية مزمنة أضرت بالفهم والوعي والادراك.

لقد كان جلال كشك في باكر حياته ماركسيا ثم هداه الله، وكذلك الدكتور محمد عمارة كان ماركسيا ثم صار بعد من أعظم مفكري الاسلام والمنافحين عنه حتى أن شيخنا الغزالي قال عنه: محمد عمارة قلعة من قلاع الاسلام في القاهرة، وكذلك دكتور مصطفى محمود كانت له بعض الريب وسرعان ما ارتأى طريق الحق.

واستطاع هؤلاء جميعا أن يقدموا لفكرهم الجديد إضافات وإنجازات ملموسة ومشرفة، فهل نردها لأنهم من قبل كانوا من أعدائها؟

لماذا لا نستر هذا التاريخ الذي قد يشوش على أصحابه ونخفيه، حتى تظل صفحتهم مضيئة بواقعهم المشرق؟ أم أننا نصر أن نهدم كل خير وكل أمل.!

ولكن ربما لهؤلاء الأصدقاء بعض العذر لقلة ثقافتهم أو لباعهم القصير في القراءة والمعرفة، لكن المفجع فعلا حينما تطالعك صفحة الكاتب الكبير الأستاذ (محمود سلطان) وقد نقل مقالا لوقعة قديمة للشيخ الشعراوي في مجلس الشعب حينما كان وزيرا للأوقاف، وجرت بينه وبين النائب عاشور مشادة كلامية، حيث قال الشعراوي عن السادات: " والذى نفسى بيده، لو كان لى فى الأمر شيء لحكمت للرجل الذى رفعنا تلك الرفعة، وانتشلنا إلى القمة، ألا يُسأل عما يفعل»- مشيراً

إلى الآية" لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ "، فصفقت الأغلبية، إلا أن هذا الكلام لم يُعجب الشيخ عاشور نائب الوفد، فصاح فى وجه «الشعراوى» قائلاً «اتقِ الله يا رجل، اتق الله، مفيش حد فوق المساءلة، يجب أن ترعى الله فى كلامك».

ورد عليه الشيخ الشعراوي بغضب وتجهم: «اجلس، اجلس، أنا أعرف الله أكثر منك وخيراً عنك»

المهم أن الأستاذ سلطان ذكر في نهاية المقال هذا الكلام المنقول والذي طبعا يعد نقله له تأييدا له وهو يخاطب القارئ ليجري عملية إسقاط على الأزمة الأخيرة في الهجوم على الشيخ: "استسمحك أن تضع بنفسك وصفا للشيخ الشعراوي في هذا الموقف.

لا قدسية لبشر يصيب هنا ويخطئ هناك.. ولا عصمة إلا لرسول."

وللأسف مازلنا في هذا الإشكال من الفهم والعجز العقلي الكبير عند الكثيرين حول فهم وتفسير مسألة التقدير ومسألة العصمة والتفريق بينهما، وأرى هناك عجزا مهولا في التفريق بينهما، فنحن حينما ندافع عن قدوة وعالم وزعيم، يكون دفاعنا منبثقا من باب التقدير والتكريم وهو الذي يظنه الواهمون تقديسا فينطلقون للغو الفارغ، الذي يظنون معه أنهم دعاة التنوير وتحرير العقل من عبودية البشر، ولكن بعيدا

عن هذا كله نقول للأستاذ سلطان: ماذا لو كان الشيخ الشعراوي قد أخطأ وتاب وأناب وهو ما يؤيده حاله فيما بعد كرجل أعلن استقالته من الحكومة وطلق المناصب كلها ثلاثا؟ هل نعيره بما مضى؟ وهل حينما ندافع عن شيخ نحبه له قدره لمقامه ومكانته الدينية وخدماته للإسلام نكون قد قدسناه ونسبنا له عصمة الأنبياء؟؟

ما هذا الفهم الأعوج والمنطق المنحدر؟

إن التركيز على السلبيات والتغاضي عن الإيجابيات والحسنات والمعايرة بالماضي الذي ينكره حاضر الانسان، خصلة وعمل لا يفعله إلا أناس يجافون الإنصاف والحق.

جريمة التعتيم

حينما يسيطر العلمانيون والشيوعيون واليساريون على منافذ التوجيه والتأثير الثقافية، فإن هذا يعني حرمان جماهير الأمة من التعرف والاستمتاع واكتشاف أعاظم الأعلام من قادة الفكر والأدب الميامين.

فالقوم يمارسون نوعا من القمع الثقافي والتعتيم المعرفي لكل من لا يروق لهم أو يرونه في فكره ينحاز للتوجه الديني، وقد يكون هذا المجني عليه عملاقا من العمالقة، وقدم تراثا ضخما قويا يمثل مفخرة لأمته، ولكن كل ذلك لا يهم، فهم على استعداد لأن يرموه في سلة المهملات، لمجرد أن له بعض ميول دينية، ناهيك عن أن يكون كله دينيًا.

انظر مثلا للرافعي ومحمود شاكر وسيد قطب، وغيرهم كثيرون من أعلام الأدب وأعمدة الثقافة، يتم تجاهلهم وقمع تراثهم لخلفيتهم الدينية، وإن العالم كله ليتعجب كيف لبلد كمصر ينشأ فيها نابغة مثل الرافعي ولا تقيم له التماثيل وتعرض قصة حياته في أفلام ومسلسلات، وتدرس في المدارس أدبه وبيانه، وتعرف الجيل به وتؤكد له أن هذا الاديب مصري ينتسب لمصر، وهو أعجوبة من أعاجيب الزمن.؟

ولكن لأنه الرافعي ومعلوم من هو الرافعي، ولخلفيته الدينية ولجهوده الضخمة في الدفاع عن التراث والدين، تتم التعمية عليه

وتجاهله، بينما تفتح الميادين لغيره من أعلام التغريب وأصحاب الجهود الطويلة في مسار التشكيك.

بل تبقى قضية التعتيم في حق وجناب العلمانيين وأذنابهم قضية ثقافية تستحق الدراسة والتأمل والبحث العميق في كارثيتها، فقد كانت لها صور وأشكال، حين بلغ بهم الأمر أن يعتموا على بعض مراحل التغير الفكري لدى كثير من المفكرين، كطه حين مثلا والذي كان في مراحل حياته الأخيرة كما يشير ويقرر أحد الباحثين العمالقة بأنه قام برحلة إلى الحج وتعلق بأستار الكعبة، ولما طُلب منه طبع بعض كتبه التي أثارت عليه الشقاق بما تحمله من دعوة للتحرر من التبعية الاسلامية وانتهاج مناهج الغرب في كل أحواله وظروفه وثقافاته، لقد رفض طه طبع هذه الكتب، وله حوارات صحفية يشيد فيها بشمولية الاسلامية وصلاحيته بتعاليمه لكل زمان ومكان، لم يشر هؤلاء إلى هذه الحقبة التي كانت منعطفا في التغيير الفكري عند طه حسين، وكان من الخير أن يعتم عليها حتى لا تكون إشارة ودليلا على إيمانية الرجل وأوبته للحق، ونقض كل ما سلف له من أفكار تمثل عمادا يبني عليها المتغربون نظرياتهم وآرائهم.!

وكل هذا يؤثر سلبا على عقلية المصريين وتكوينهم الثقافي، ومن هنا لا نرى عجبا حينما نبصر بأعيننا شبابا جاهلا بدينه وتراثه وحضارته، ويقاوم أفكار الدين في كل مكان جهلا بها وغفلة عنها، لا نعجب حينما نرى موجات وصفحات للملاحدة والالحاد، تتغنى كل يوم بما يخالف الدين والعقيدة والحقائق الإسلامية.

لقد كان لجهود اليساريين في مناصب الثقافة، نتائج كارثية على طبيعة التدين في وجدان الشعب المصري، وما نعانيه اليوم من تبعاتهم وآثارهم للأسف.

لكن يبقى سؤال مهم جدا وهو ماذا لو كان الاسلاميون هم في منافذ التوجيه ومناصب الثقافة؟ هل كانوا سيتيحون الفرصة لغيرهم أن يظهر ويعبر عن نفسه وفكره أم كانوا سيقمعونه ويوؤدونه؟

أعتقد أن الاسلاميين وقتها سيكونون شرسين جدا خاصة وأنهم ينطلقون من منطلق ديني وربما يحكمون بالردة والكفر على المعارض، وهو قمع عظيم لا يتناسب في معركة الدعوة.!

وهو ما دعى بالكثيرين أن يختاروا المجتمعات العلمانية التي تتيح لكل الافكار ان تظهر وتعبر عن نفسها دون المساس بحرية الفكر والمعتقد، وعلمانية هذه المجتمعات ليست شبيهة بعلمانية مجتمعاتنا، لأن العلمانية في بلادنا علمانية فاشية شرسة العداء فاجرة الخصومة.

علمانيون ينصفون الإسلام

منذ أكثر من ستة عقود قام سلامة موسى ينادي بمساواة المرأة مع الرجل في الميراث، وظن الرجل أن النساء من دعاة النهضة والتنوير سوف يقفن خلفه، ويصفقن له ويدعمنه بحماسهن، ويرددن دعاويه التي تعترض على قسمة الله.

وأحب الرجل أن يبدأ بزعيمة النساء في ذلك الوقت، فكتب خطابًا إلى هدى هانم شعراوي زوجة الزعيم سعد زغلول، يستحثها أنا تنادي بما طالب به من هذه المساواة، وكان الظن أن تقف المرأة معه، وتنادي بشذوذه الذي يعتقد أن يصب في دعوى تحرير المرأة، وأنها ستنادي به مُجددا ومصلحا ومنقذا للمرأة ليتساوى في الزعامة والصدارة بقاسم أمين، لكن حدثت المفاجأة المذهلة التي سجلتها هدى شعراوي في مذكراتها، حينما ردت عليه بأنها، ليست موافقة على هذه المساواة التي ينادي بها أمام ما قسمته الشريعة للمرأة، وأن النهضة النسوية في هذه البلاد لا يجب أن تتشبه بأوروبا، فلكل بلد شريعته وتقاليده، وليس ما يصلح في بلد يصلح للبلد الآخر، كما أننا لم نلحظ تذمرا للمرأة وشكوى على عدم مساواتها بالرجل في الميراث، لأن قناعتها بما قسم لها من نصيب، ناشئ من أن الشريعة عوضتها مقابل ذلك بتكليف الزوج بالإنفاق عليها وعلى أولادهما، كما منحتها حق التصرف في أموالها.

ثم فندت شبهة أخرى مما طرحه فقالت: أما القول بأن عدم المساواة في الميراث من دواعي إحجام المرأة بعض الشباب عن الزواج في الشرق، فغير وجيه، لأننا نشاهد في أوروبا انتشار نفس الداء في عصرنا الحالي أشد خطورة منه في الشرق رغم أن المرأة الأوروبية ترث بقدر ما يرث الرجل، فضلا عن أنها ملزمة بدفع المهر، ومكلفة بالتخلي عن إدارة أموالها لزوجها.

وقالت: لو سلمنا بنظرية الأستاذ سلامة موسى وجاريناه في طلب تشريع جديد، فهل لا يخشى أن يؤدي ذلك إلى إسقاط الواجبات الملقاة على عاتق الزوج نحو زوجته وأولاده، بالاشتراك في الصرف، وفي ذلك ما فيه من حرمان يعود بالشقاء والبؤس على الزوجات الفقيرات، اللاتي لم ينلن ميراثا من ذويهن، وهذه الطبقة تشمل أغلبية الزوجات، ولا يخفى ما هن عليه من جهل وأمية.

ولعلك الآن تلمح من بعيد وأنت تقرأ هذا الكلام أو هذا الدفاع، نفس موقف زوجها حينما ألف طه حسين كتابه الشعر الجاهلي، فهاجت الدنيا وماجت، وتحركت مظاهرة طلاب الأزهر إلى "بيت الأمة" - حيث يسكن سعد زغلول ـ فأطل من الشرفة على المظاهرة الغاضبة، معلقًا على كتاب طه حسين بقوله: "وماذا علينا إذا لم يفهم البقر"؟! ولقد ظلت هذه الكلمة توجع طه حسين، وتؤثر في موقفه من سعد زغلول إلى أن توفاه الله!.

وعندما قرأ سعد زغلول رد فريد وجدي على كتاب (في الشعر الجاهلي) ـ وكان وجدي قد أهدى نسخة منه إلى سعد زغلول ـ أرسل إلى المؤلف رسالة ـ تعلن عن موقفه من القضية.. وعن بلاغة هذا الزعيم العظيم.. وفيها قال:

"حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدي.. وصلني كتابك الذي وضعته في نقد كتاب (في الشعر الجاهلي)، وتفضلت بإرساله إليّ، وقرأته في عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرك الذكر، فراقني منه قول شارع للحق، ومنطق يقارع بالحجة في أدب رائع، وتحقيق دقيق في أسلوب شائق، وإخلاص كامل للدين في علم واسع، وانتصاف للحقيقة في احترام فائق، ومجموع من هذه الخصال استميلت منه قلبًا فياضًا بالإيمان، وعقلاً مثقفًا بالعرفان، ونفسًا محلاة بالأدب، فقررت عينًا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من أمثالك فينا، وأن يجازيكم على ما تصنعون بتوفيق الباحثين والمتناظرين لاحتذاء مثالكم في دقة البحث، وأدب المناظرة، وإنكار الذات، والانتصار للحق، وبتوفيق الناس لاستماع أقوالكم وإتباع أحسنها، والسلام على المهتدين".. سعد زغلول..

ما هذا الجمال وما هذه الروعة؟ علمانيون يدافعون عن الإسلام وينصفون الشريعة؟!

ولعل هذه الصور تلقي بظلالها على علماني اليوم، الذين ركبوا موجات التطرف والشذوذ في العداء للدين والانتقاص من الشريعة،

ورفض الاسلام كلية واتهامه بأنه سبب التخلف والظلام والتدهور، لنرى الفرق الشاسع بينهم وبين العلمانيين الأوائل، الذين كانوا متزنين منصفين في كثير من آرائهم التي تحفظ الدين ولا تتعدى حدوده، وظهور نماذج تشبه الملحدين في التنكر للدين ووحي السماء.

هدى شعراوي وزوجها يتحولان في هذين الموقفين إلى حماة للدين من المعتدين عليه، والمتجنين على أحكامه، إيمانا منهما بضرورة الحفاظ على هوية الوطن ودينه ومعتقده، ويبعثون برسالة من هذا الزمن الغابر، إلى هؤلاء المبتذلين الذين شاقوا الله ورسوله، ويريدون أن تنسلخ مصر من دينها وانتمائها لإسلامها.

مزبحة فكرية

لن ينسى التاريخ أبدا ولن تنسى ذاكرة الثقافة ولا الفكر ولا الأدب، جناية الحقبة الناصرية وجريمتها في حق الثقافة والأدب، حينما أقدمت على حذف ٦٠٢ بيتًا من الشعر من ديوان شوقي أمير الشعراء، هذا النظام الذي كان ينكل بكل من يخالفه أو يراه معارضا لتوجهه وسياساته، فيمحوه من الوجود، ويذهب به كما يقولون وراء الشمس.

حذفوا هذه الأبيات من الديوان الأصلي، وأصدروا طبعة جديدة خالية منها، بحجة أنها تمدح في أسرة محمد على والملك، ولكنها للأسف لم كلها تمدح العصر الذى سموه البائد، وإنما كانت تمدح وتمجد الحريات والرأي، خاصة حرية الصحافة والدستور، مما اعتبر هذه القصائد والأبيات تغرد خارج السرب.

لقد كان هذا النظام جريئا وقحا في كل شيء، حتى أنه لو قدر له أن يغير نصوص القرآن لفعل، فلم يكن يحترم دينا ولا تراثا وثوابت ولا قيما ولا هوية تجسد شخصية الأمة، وفي الوقت الذي تحترم الأمم الأخرى رموزها من الشعراء والأدباء والعلماء والزعماء، مهما كان من فكرهم وآرائهم، فيقيمون لهم المتاحف وينصبوا لهم التماثيل ويحتفظون بكل خصائصهم وأدواتهم وملابسهم، يأتي العهد الناصري البغيض

المهزوم بهذه الخيانة الفكرية البشعة، والعدوان الغاشم على تراث نابغة الشعر العربي بعد المتنبي، وظلت الأمة تتربى وتتناقل هذا البتر الكبير من تراث شوقي، حتى قيض الله تعالى لرجل من عشاق الشوقيات أن يدرك الخيانة ويقف على الرزية، فقام بنشر ديوان الشوقيات المجهولة، وقام من بعده الطبيب مصطفى الرفاعي من تقصى المحذوف والمجهول وطبع الشوقيات الصحيحة وأضاف إليها ما مُحي عنها عمدا واستهتارا وسفها.

ولكن وللحق.. فإني أجد مبررا للأنظمة الحاكمة أن تفعل ما فعلته في تراث تراه مخالفا لتوجهاتها التي تسوس بها الشعوب، وربما لأن قيادتها ربما تكون عقليا غائبة عن مستوى التقدير المطلوب لمثل هذه المآثر والمفاخر التراثية في إطار العلم والثقافة، لكن المصيبة الأكبر أن يقوم بمثل هذه الخيانة، أهل الفكر أنفسهم، وتنبع هذه المهزلة من أهل الثقافة ذاتهم، ممن يدعون إلى التنوير وينصبون من أنفسهم أو نصبهم غيرهم من أصحاب الهوى دعاة الحرية وأعداء الرجعية والتخلف، فإن الكارثة هنا تكون أعظم حينما تفقد هذه الشريحة عدالتها ومروءتها ونزاهتها، وهي تتجنى على التراث الثمين بهذه الجناية العظيمة من الحذف والتشويه والتضليل والتزييف.!

وهذا ما فعلوه مؤخرا مع الرافعي إمام البيان في كتابه وحي القلم، حينما نشروه في مكتبة الأسرة في عهد مبارك، وحذفوا منه مالا يروقهم من المقالات كمقال (الأيدي المتوضئة) لأسباب يعلمها من

يبحث عن الموضوع، بل فعلوا في تراث الإمام محمد عبده ما هو أشنع وأخبث وأفظع، وهي الفضيحة التي كشف خيانتها العلامة المفكر الكبير دكتور محمد عمارة في كتابه التنوير والتزوير، ووصفها بأنها أكبر مذبحة فكرية ثقافية، قل نظيرها في ميدان تزوير الكتب ونسخ المؤلفات، حينما نشروا كتاب الامام محمد عبده (الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية) فحذفوا كلمة النصرانية، ولم يكتفوا بتزوير العنوان، بل حذفوا من المحتوى ما كتبه الامام عن النصرانية في معرض مقارنة أصولها مع أصول الاسلام، حتى قُدر ما تم حذفه إلى (٣٠) صفحة ، ثم قاموا بما هو أبشع وأعمق من الحذف، فلجأوا إلى التزييف بالحشو والإضافة، فأدخلوا في الكتاب ما ليس منه، وما لم ينطق به الإمام.

هكذا يفعل قادة التنوير، أو بتعبير أدق قادة التزييف والتزوير، مثل هذه الخيانة الفكرية في حق الإمام محمد عبده وتراثه، حتى يحشروا الرجل غصبا في حزب التنوير التغريبي العلماني، وليدرجوه كرمز من رموزهم، وما كان رحمه الله إلا مصلحا دينيًا كبيرًا، وعلامة بارزة وركيزة فكرية أساسية في الدعوة إلى قيام الأمة على دينها وقيمه وتعاليمه إن أرادت فلاحا أو إصلاحا.

ولكنها حرب يقودها من لا شرف لهم ولا ضمير ولا مروءة، حين احترفوا أساليب اللصوص والخونة في التعامل مع تراث رموزنا وهم مجردين من الأمانة والعدالة ونبل الخصومة.

دافع عن وطنك بأدب

ماذا لو رأيت أمامك من يسب وطنك ويشين بلدك، ثم وجدت قرينًا لك وقد أخذته الحمية فثار عليه وسبه بأقذع الألفاظ، ورد عليه بفاحش الكلمات؟

لا شك أنك وقتها وكل من يرون هذا المشهد، سيحكمون على هذا الثائر أنه وطني حر، وفتى بار أنجبه هذا الوطن.

لكنني والحق يقال.. لي نظرة أخرى وتقييم مختلف، فإنني حينما أرى الأدب ينهدم والخلق تتداعى ركائزه، لا قيمة وقتها عندي لأي شيء، فمن لا يدرك قيمة الأدب ومقام الفضيلة، لا يدرك معنى الوطنية، ويمكن لك باختبار يسير أن تبصر حقيقة هذه المشاعر الوطنية الزائفة، في نفس هذا الثائر الصفيق وأمثاله، فما عليك إلا أن تقول له وتخبره: بأن الوطن يحتاج منه أن يتبرع بجزء من ماله، أو أن يضحي في سبيله بجزء من جسده، ساعتها فقط سوف تملأ شدقيك بالضحك، وأنت تجلس متمددا على أريكة الساخرين، لأن هذه الثورة وهذه العصبية، ستتحول إلى رماد هش تعصف به حفنة يسيرة من الهواء، أو تُؤول كما وصف القرآن إلى هباء منثورا.

الفضائيات اليوم تعج ببعض الإعلاميين، الذين لا صنعة لهم إلا السباب واللعان، حتى تتخيل أن قلوبهم شعلة من الوطنية، ولكنهم كذبة أفاقين لا تعنيهم إلا مصالحهم الذاتية، ومطامعهم الشخصية، ويحتاجون لجرعات ثقيلة من الأدب، حتى لا يلقوا في وجدان الناس هذا السقوط المريع.

لقد جاءني هذا الخاطر وأنا أقرأ كتاب فيض الخاطر للكاتب الكبير القديم (أحمد أمين) وفي مقالة من الكتاب تحت عنوان (صفحة سوداء) أخذ الراحل يستعرض ذلك التاريخ الذي شان مصر والمصريين، وذكر من أخلاقهم ما يعيب أهلها ويذم سكانها، وينسب لهم الجبن والدعة والرقة والمذلة، لقد كتب المؤرخون كلاما تخجل منه الأجيال المصرية في كل عقد وزمان، وأبهرني في الرجل أنه كان مهذبا حكيما عاقلا راشدا، كان يناقش كل الشبهات والتهم ويرد عليها ويقابلها ببعضها، ويظهر نقاط تناقضها، لم يسب ويلعن، أو يطنطن بشعارات زائفة لا تعبر إلا عن عصبية جوفاء، لقد حفظ مقام كل عالم ومؤرخ، نسب لبلادة نسبة لا تليق، فمنهم ابن خلدون والمقريزي والسيوطي، كلهم نسبوا الذلة والرقة والجبن لمصر والمصريين.

ولعل هذا هو الذي دفع بعض الوضاعين أن يروجوا لحديث إن جند مصر هم خير أجناد الأرض والذي لم يبلغ درجة الصحة كما أشار بعض المحدثين.

لقد رد أمين على ابن خلدون بأنه كانت فيه حدة الطباع، وكان ينظر بها للمصرين لأنه طباعهم لينة، فحكم بطبعه على طبعهم، ورد على المقريزي بأن قوله متناقض حينما ذكر أن بعض المصريين أبطال شجعان، وأن منهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور، فكيف إذن يستقيم الفهم، وتقبل القاعدة الشذوذ؟ فالقواعد التي وفرت الجبن والذلة والرضا بالضيم في المصريين لا تستثني أحدا.

ثم لفت أمين في رده إلى سحر التربية وقوتها وقدرتها على تغيير الطباع، فهي أقوى بكثير من قوى الطبيعة.

كما رد فرية فرعون حينما قيل: إنه لما خرج، خرج معه أشراف الناس وعلية القوم، ولم يتبق إلا العبيد الأذلاء، فقال أمين: إن المصريين قد نزل بين أظهرهم كثير من سادة الروم والعرب والترك، ذابوا في مصر واختلطوا بأهلها، فلم يغلب الذل العزة، وعهدنا دومًا غلبة الأعزاء.

ردود علمية، وحوارات منطقية، بعيدة كلها عن اللعن والسب، والتطاول وسوء الخلق، وتسفيه الخصوم.

ما أجدرنا أن نتعلم الأدب كثيرا، حتى تتوجه مشاعرنا وعواطفنا في سياج بهي من الأخلاق السامية.

ولله در شوقي:

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا ❊❊ فليس وراءها للعز ركن

فقه التعامل مع الأعلام

من المألوف والمعروف عناية المستشرقين والغربيين وولعهم بتراثنا وكتبنا وأسفار علمائنا وعطاء حضارتنا، لقد بذلوا الغالي والنفيس في تحصيل الكثير من هذا التراث، وصاروا وحدهم من يملكونه، وأخذوا في ترجمة الكثير منه، وتعريفنا نحن المسلمين به، وكانت لهم في ذلك جهود جبارة وخارقة، ولا شك أن كثيرًا منهم تعامل مع هذا التراث بالروح الصليبية، فكان بعيدًا كل البعد عن النزاهة والموضوعية والإنصاف، إلا أن بعضهم كان منصفًا وأعطى حضارتنا ورجالنا حقهم دون نقصان.!

وهذا الولع بالتراث شيء طبيعي، لأن نفوسهم تعشق البحث، وتهيم بالعلم، وتوغل في المعرفة والدراسة لطبائع الأمم وعادات الشعوب وأديانهم، لكن الشيء الأغرب أن يقدروا رجالنا وينبهروا بزعمائنا وقادتنا الذين كانت لهم بصماتهم على جبين الزمن.

في الكتاب الشهير الذي وضعه عالم الفيزياء والفلكي الأمريكي مايكل هارت، تحت عنوان الخالدون مائة، جاء سيدنا محمد ﷺ رقم ١ في القائمة، وقد ذاع صيت الكتاب وانتشر، وحققت مبيعاته رقما هائلا،

ووضع قائمة مؤلفه وقفا لمجموعة من الضوابط والمعايير الصارمة، ليحوز نبينا التقدير الأول على كل رجال العالم.

ولا شك أن من يراجع أقوال الغربيين والشرقيين من العظماء والنابهين في نبينا ﷺ ومسيرته، فإنهم سيرون ما يدهش الألباب، فرغم عداء مللهم للإسلام، إلا أن بعضهم لم يسعه سوى الإنصاف والإقرار بالحق، ومنذ أيام قرأت نظرة الأوروبيين لسيدنا سعد بن أبي وقاص، حين عدوه من أكبر قادة الجيوش في العالم، لأنه الوحيد الذي تمكن من هدم ملك فارس، وفتح عاصمتهم التي لم يستطع قائد في الدنيا أن يقربها ممن حارب الفرس.. حتى الإسكندر بجلال قدره، وعظيم شأنه في دنيا الفتوح والحروب، لم يستطع أن يقربها.

إن هناك فقه يتقنه الغرب في التعامل مع العظماء، حين يدركون أن هؤلاء العظماء إنما هم لبنة في بناء حضارتهم، ومن ثم لابد أن يعتنوا بها ويجملوها حتى تظل زاهية براقة، ترمز لتلك الحضارة التي يفاخرون بها الأمم، وقد علمت أن ابن سينا كان باطنيًا قرمطيًا وقد أوجب علماء الإسلام لعنه، وكذلك الجاحظ كان معتزليًا مارقًا، ورغم هذا أرجو وفي هذا الزمان خاصة، أن تكون لنا نظرة خاصة لأمثال هؤلاء النابهين العباقرة، فلماذا لا ننحي الجانب العقدي جانبًا، ونعتز بهم لانتمائهم لحضارتنا فيضافون إلى سلسلة المجد التي تميزنا وتشيد بنا وبتحضرنا؟ لماذا لا نجعل منهما ورقة نكسب بها بعض الجولات في صراعنا مع الغرب، الذي يحاول جاهدًا نفينا وإفناءنا من الوجود؟!

هناك قوم بارعون للتقليب في صفحات الماضي، واستخراج الهنات وتضخيم أمرها، حتى لا يكون شيئا مذكورًا غيرها، وهؤلاء يتصرفون بجهل يؤذي الأمة في مسار كفاحها، ويعوق انتصارها، ويهدر دفاعها في سبيل وجودها.!

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله:

" أذكر أن بابا روما الأسبق مات عقب مرض ألم به، فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدري ما فيها عن حياته الخاصة، فصودرت الرسالة، وفصل الطبيب من النقابة، وانتهت حياته الاجتماعية، وقد ألفت عشرات الكتب عن (نابليون) تنوه بأمجاده وتتواصي بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته، القوم إن رأوا من عظائمهم خيرًا أذاعوه وإن رأوا شرًا دفنوه! أما نحن فمبدعون في تضخيم الآفات إن وجدت، واختلافها إن لم يكن لها وجود، والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ. وقد نظرت إلى علماء الدين الذين تناولوا الأفغاني بالسوء فرأيتهم يحيون في إطار نظم تتبع الاستعمار الشرقي أو الغربي، وأنهم في مواجهته ومواجهة سماسرته خرجوا بالصمت عن لا ونعم"

انظر هنا إلى هذا الثائر العظيم الذي لقب بموقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، والذي ينتمي لأمتنا ويعتز العقلاء منها بهذا الانتماء، لكن قوما من التيارات الحرفية خدعتهم دعاوى الصليبيين التي رددها لويس عوض، وكانت تهيل الأكاذيب على الرجل العبقري، حتى يُفقروا

أمتنا فلا يكون منها ولا فيها مثل هذا الرجل الذي أقض مضاجع الاستعمار، وأيقظ الشعوب وغرس بذور الحرية في بلاد الإسلام المخدرة، إنه جمال الدين الأفغاني الذي عرف الغرب قيمته، حينما أهلنا نحن التراب على قامته العالية.!

يقول أحمد أمين في زعماء الإصلاح:" قصدت الآستانة سنة (١٩٢٨م) بعد وفاته بإحدى وثلاثين سنة، فرأيت واجبا أن أزور قبر هذا الرجل العظيم، وأستعيد عنده ذكرى عظمته وسلسلة من أعماله، فسألت عنه الكثير فلم يعرفه، ورأيت رجلا أفغانيًا يعمل خازنا لمكتبة الشهيد علي، فوصف لي مكانه، فذهبت مع صديقي العبادي عصر يوم الأحد ٨ يوليو إلى (ماجقة) أو (متشكة) فوجدت في ربوة على مدخل البوسفور مقبرة قد انتشرت فيها المدافن، ودلنا شيخ المقبرة على مدفن السيد، فعلمنا أن قبره كان قد تشعث ولم يعن به أحد، وكادت تضيع معالمه، ولم يفكر فيه أحد من أهل الشرق الذين أفنى فيهم حياته، إنما ذكره مستشرق أمريكي حضر إلى الآستانة سنة (١٩٢٦م) ونقب عن قبره حتى وجده، فبنى عليه تركيبة جميلة من الرخام، وأحاطها بسور من حديد، وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته، وفي وجه آخر من التركيبة ترجم يقول: أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم، الخبير الأمريكاني المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦م"

حقا إنها الأمة التي تهدم عظماءها.. تماما كتلك الدابة التي تقتل صاحبها.

الشرقاوي له رأي آخر

قال لي تلميذي وهو مضطرب حائر: إنهم يا أستاذي يثيرون اليوم جلبة كبيرة ويتحدثون عن ابن تيمية حديثا مروعًا ويتهمونه باتهامات شنيعة، وينسبون إليه تكفير الناس وقتل الأبرياء.

ونحن حقا جاهلون بحقيقة الرجل، ولكننا لا يسعنا إلا أن نصدق أو نميل إلى ما يقال، خاصة وأنهم يستشهدون بأقوال تنسب إليه.

لكن رابني شيء يا أستاذي حينما استمعت إليك مرة، وأنت تتكلم عن الصوفية وتدافع عن المعتدلين منهم، وتستشهد بابن تيمية، الذي كان يحترم المعتدلين منهم ويشيد بعلمهم ومكانتهم، في كتبه وفتاويه، وقارنت بين ما تقول وما بين ما يردده أتباع السلفيين الذين يرون ابن تيمية إمام الأئمة، ويقدمون قوله على كل الأقوال، لقد تبين لي وقتها أنهم لا يأخذون من كلام الرجل إلا ما يوافق هواهم وطباعهم القاسية، وكذلك كانت تفعل جماعات الجهاد والتكفير والهجرة، وغيرهم من المتشددين، ولعل هذا المسلك هو ما دفع تيارات التغريب والعلمانية أن تتخذ من ابن تيمية موقفا عدائيا، وتشن عليه حملاتها وغاراتها، في كل زمان ومكان، ظنا منها وجهلا أنه أساس التشدد ومنبع الإرهاب.

أستاذي الحبيب أرجو منك ألا تمل مني فأنا فعلا مضطرب متشكك محتار، لا أعرف أين الحق وأين الصواب؟ حتى صفحات الانترنت بها من يمدح وبها من يسئ، وأنا أريدك أن ترشدني لكتاب يحكي ويتبين حقيقة الرجل، حتى أبني رأيي على علم وبصيرة.!

لكني يا أستاذي لي إليك طلب فأنا لا أريد منك أن تعطيني كتابا لعالم دين أو داعية من الدعاة أو باحثا في الشريعة، فلن يكون هؤلاء إلا أن ينتصفوا لابن تيمية ولا يرون فيه أي نقيصة، أنا أريد شيئا آخر لا أعرف، لكنني أريد كتابا لكائن من الناس لا ينتسب إلى السلفيين أو العلماء الدينيين، أريد كتابا من خارج هذه الدائرة ليقول في الرجل قولة الحق.

بهذا الحوار خاطبني تلميذي الذي اعتلته الريبة والغشاوة فلم يعرف أين الطريق وأين السبيل إلى الحق؟!

فاستلقيته بنفس صابرة وحوار هادئ، وقلت له أتفهم كل ما تقول وأبصر غايتك وغرضك وعندي جوابك بإذن الله، ففرح وانفرجت أساريره، فقلت له: هل تسمع عن (عبد الرحمن الشرقاوي) فقال لي لعلك تقصد ذلك الأديب الذي كتب رواية الأرض التي مثلت فيلمًا سينمائيًا شهيرًا؟ فقلت له نعم بالضبط، ومن الجيد أنك تعرفه.

فقال لي نعم يا أستاذي وما علاقة هذا الرجل بابن تيمية وهو من قامات الأدباء في الجيل الذهبي جيل العقاد وطه حسين والمازني وكان

في درجتهم وألمعيتهم، حتى أنني سمعت أنه كان شيوعيًا يساريًا.؟ بل مما أتذكره بقوة أن القائمين على معرض الكتاب جعلوه شخصية المعرض في عام ٢٠١٨

قلت: إن العلاقة وثيقة جدا فقد تفرد هذا الرجل من بين أدباء هذا الجيل الموهوب بعمل فريد لم يتناوله غيره من الأدباء الذين كتبوا في الاسلاميات، وقد كان هذا العمل من أروع ما قدم إلى المكتبة الإسلامية والأدبية، وكان عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية وسماه (الفقيه المعذب ابن تيمية)، وهو أول كتاب يحكي سيرة ابن تيمية بأسلوب الأديب، بل أول كتاب يتناوله مفكر ممن يسمون أنفسهم التنويرين حياة ابن تيمية فيجلى فيه من معالم الروعة وصور الجمال ما غفلته الأجيال عن سيرة هذا العملاق الكبير.

لا شك أن الكتاب سيفيدك كثير وهوه تحديدا ما طلبت، فليس الشرقاوي من السلفيين أو الباحثين الشرعيين أو من علماء الدين حتى تقرأ عن ابن تيمية بتصور مختلف ولهجة نوعية.!

قال تلميذي شوقتني يا أستاذي فيا ترى كيف يتناول الشرقاوي سيرة ابن تيمية، وكيف كتب عنه؟

قلت له: لا أريد أن أحرق عليك شوقك وقراءتك ولكن في عجالة سريعة، رأيت الشرقاوي وهو يكتب عن ابن تيمية، يكتب ولم

يكن فيه باله، ولم يدر في مخايله هذا الهراء الذي يُردد اليوم، والأكاذيب البالية التي تنسج حول هذا الرجل العملاق، لأن نظرة الشرقاوي المفكر الأديب، كانت أروع وأوسع وأشمل وأدق وأرحب وأنصف من ضعاف العقول الذين يرددون اليوم شبه الإرهاب والتكفير وينسبونها لها الرمز الشامخ في دنيا الإسلام.!

كان الشرقاوي يركز على مكامن العظمة في سر هذه الشخصية التي تعددت ألوان البطولة في حياتها، ففوق العلم الذاخر والحافظة الألمعية، كان الرجل حاملا لهم أمته ،كما كان حاملا لهم دينه، فنذر نفسه لقضية التحرير في كل المجالات، تحرير العقل بالفتيا والقلم، وتحرير البلاد بالسيف والنزال، وتحرير الدين مما ألصق به من جهالات وبدع وشركيات.!

أبان لنا الشرقاوي أنه لم يكن مجرد عالم دين عادي ينكفئ على كتابه ومسجده وعمامته، بل أقبل على الحياة وهو يتمثل صورة الصحابة الذين كانوا عبادا في الليل وفرسانا في النهار.

نذر ابن تيمية نفسه وحياته لحرب كل شر ملأ حياة المسلمين، ومحو كل سوء نخر في كيان دنياهم، حارب الجور في السلاطين الظالمين والخونة المرتشين الفاسدين، حارب العلماء المنبطحين الذين يشترون رضاء الناس والسادة والحكام على حساب دينهم وشرف شريعتهم،

حارب الصوفية المبتدعة التي لوثت حقيقة الإسلام ونشرت سمومها في كل مكان بعيدا عن الحق والاتباع والنور، حارب الفلاسفة وأنصارهم، ممن لوثوا البيئة الإسلامية بأقوال تخالف الدين الذي يريدون أن يستدلوا على مقوماته برأي الفلسفة، فعاركهم وهدم بنيانهم من قواعده، حارب الشيعة الحشاشين الذين اعتصموا بالجبال وألهوا عليا رضي الله عنه، فجاهدهم كما يجاهد الأعداء المشركين، حماية لسلامة العقيدة والدين.

كان حربًا على الباطل بكل صوره وأشكاله وألوانه، لم تلن له قناة، ولم تخف له عزيمة، ولم يخمد له حماس، ومن ثم لا نتعجب أبدا، إذا كان للرجل أعداء كعدد شعر الرأس، لا يحصون ولا يعدون، بداية من رأس الدولة حتى العامة الجهلاء الذين يؤمنون وراء السلطان والصوفية وعلماء السوء.

لا نعجب أبدًا لحجم هذا العداء إذا علمنا أن الرجل قد قدر له أن يضع نفسه في هذا الخندق الملتهب، وأقام نفسه على هذا الثغر الذي لا تخمد فيه العواصف.

كان الرجل حرا جريئا شجاعا لا يخشى في الحق شيئا، وحينما نصحته أمه بالتروي خوفا من مكر الحاقدين وحسدهم له، كانت قولته المُصدعة لبنيان الزمان:

أترضين لي أن أسكت على باطل، أفترضين لي الدنية في ديني؟

يقول أبو حفص البزار: "ولم يزل المبتدعون أهل الأهواء، وآكلوا الدنيا بالدين، متعاضدين، متناصرين في عدوانه، باذلين وسعهم بالسعي في الفتك به، متخرصين عليه الكذب الصراح، مختلقين عليه، وناسبين إليه ما لم يقله ولم ينقله، ولم يوجد له به خط، ولا وجد له فيه تصنيف ولا فتوى، ولا سمع منه في مجلس"

أظهر الشرقاوي مما أظهر من جمال ابن تيمية وعظمته، أنه كان يفني حياته من أجل الناس وتحقيق مصالحهم مهما تحمل من العنت والمشاق، ومهما كابد في سبيل ذلك الأهوال والنوازل، ويتحمل في ذلك مسؤوليته كعالم وولي أمر يسأله الله يوم القيامة عن واجبه، فحينما جاءه رجل مسكين يشكو ظلم أحد الأمراء وقد جلده بالسوط وانتزع حقه، طالبه الرجل أن يشفع له ويرد عليه ما سلبه الأمير منه، وكشف عن ظهره ليرى ابن تيمية أثر الجلد والعذاب، ولكن تلاميذه نصحوه أن يبتعد عن ذلك ليتجنب غضب الطاغية ومهانته، فقال لهم شامخا صامدا: من يخاف الله لا يبالي بالجبارين العتاة، ومازال الرجل بالأمير المعتدي حتى رد الحق للضعيف المسكين.

ومن البديع يا تلميذي ومن الجميل والمؤثر أنك حينما تطالع كتاب الشرقاوي عن ابن تيمية، تدرك من بين السطور، كيف عشق هذا الكاتب التنويري شخصية ابن تيمية وامتزج بها، واستلهم روحه؟ فكان يكتب عنه بإحساس ظاهر، وحب متدفق، ولعمري إنها صورة أو سطور المنصف المحقق، لا صاحب الهوى والغرض.

كما أنه كتاب استطاع صاحبه أن يبرز في صفحاته صورة الإنسان القدوة والنموذج الأسمى في كل شيء، في الدين والدعوة والعلم والاجتهاد وحب الوطن ورعاية الضعفاء والاهتمام بمصالح الناس، وطلب الحرية والتحرر من العبودية، بل كان النموذج في صورة القائد العسكري الذي يقود المعارك مسلحا بالإيمان قبل اللسان.

يعد عمل الشرقاوي الذي تفرد به بين أدباء الجيل المصريين الشامخين، درة في عرض حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، وإظهار بطولته التي غاب عنها اليوم من جهلوا قيمته وألصقوا به تهما هو منها براء، فالرجل لم يكن إرهابيا ولم يكن تكفيريا، ومن زعم هذا فقد افترى عليه إثما كبيرا، ومن صدق هذا بجهله، فقد زاد الطين بلة.!

إن العصر الذي عاشه ابن تيمية كان عصرا مريعا يموج بالأحداث والفتن والحروب والعدوان والتآمر والخيانة، وسواد الجهل والبدع والمنكرات، والتجني على الدين الذي أوشكت ملامحه الحقة أن تضعف وتزول، فجاهد الرجل بفكره وقلمه، وكانت فتاويه وأقواله التي ردت كل بلايا هذا العصر الشائك، والتي كان بعضها له ظروفه وحيثياته الخاصة، والتي لا يمكن أبدا اجتزاء بعضها وإسقاطه على العصر الحاضر فيسوء الفهم ويضل العقل ويظلم الرجل وينسب إليه مالم يقله.

قال تلميذي: ولكن عقلي يحار وهو يُسائلني يا أستاذي، ويقول لي: لماذا هذا الكتاب مجهول مغمور رغم شهرة صاحبه وذيوع صيته؟

قلت لتلميذي: من سيظهره إذن؟ السلفيون الذين لا يرون كاتبا غير كُتابهم وعالما إلا علمائهم، أم التنويريين الذين يفجعهم كتاب الشرقاوي ويحاولون إخفاءه والتعمية عليه وكتمه عن الوجود؟!!

يا بني إن الأمة الكبيرة الناضجة الواعية هي التي تحمي عظماءها ورموزها من زيوف الجهلة وتهم المتآمرين، واجبنا أن نحيي سيرة الرجل ونظهر حقيقة فكره الرصين وعلمه ورأيه الذي مثل بصمة ظاهرة في تاريخ تراثنا وهويتنا.

فلتذهب العائلة إلى الجحيم

في عام ١٨٨٠، انقلب القارب الملكي التايلندي في طريقه إلى القصر الصيفي الملكي، والذي كان يحمل الملكة ساناندها كوماريراتانا ملكة تايلاند وزوجة راما الخامس، ومعها العديد من الخدم، في نهر تشاو فرايا، وبالرغم من تواجد الكثيرين في القارب إلا انه لم يحاول أحد من المتفرجين إنقاذها عند غرقها لأن قوانين المملكة وقتها كانت تنص على أن عقوبة لمس الملكة هو الاعدام.

وماتت الملكة وفقدت حياتها بسبب العادات التي كان يمكن لها أن تنجو وبكل سهولة لو لم تكن موجودة.

هل يمكن لك أن تصدق أن هناك أقواما يقدسون التقاليد والعادات أكثر من تقديسهم للشرع والدين والحق والصواب؟

أمرهم عجيب وأنت تراهم إذا ما وُضعوا في اختيار بين الحق والتقاليد، فإذا بهم يبدون التقاليد، وينصرون العادات، على الحق، حتى ولو كان الدين الذي يعتنقونه ويتعبدون بكتابه ويسجدون لإلهه!

أقف في حيرة بالغة كلما قرأت شهادة الشيخ (أحمد حسن مسلم) من علماء الازهر وعضو لجنة الفتوى فيه، حينما كان يعمل واعظًا في مركز

بني مزار بالصعيد، واضطرته الظروف للنزول لبلدة أبو جرج موطن الشيخ علي عبد الرازق، والبيات فيها، ضيفًا على أسرتهم، وهناك التقى بالشيخ علي عبد الرازق صاحب كتاب (الاسلام وأصول الحكم) وبعد صلاة المغرب، لاحظ الشيخ مسلم على الشيخ علي أنه صلى ست ركعات بعد المغرب كنافلة، على عكس ما يعتاده الناس من صلاة ركعتين، وأن صلاته كانت قمة في الخشوع، فاقترب منه وسأله: كيف يكون حرصك على أداء السُنة بهذه الطريقة، وأنت مؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم؟ وهو كتاب عليه كثير من المآخذ التي تقدح في العقيدة؟!

وهنا يسكت الشيخ علي قليلا ثم يقول للشيخ مسلم: وهل أنا الذي ألفت هذا الكتاب؟ إنما ألفه الدكتور طه حسين!

فسأله مسلم: ولماذا نسبه إليك؟! فقال الشيخ عبد الرازق: لقد فاجأني بالكتاب وعليه اسمي، ولما سألته عن سبب ذلك، أجاب طه بقوله: لكي تكون لك شهرة عالمية، وذلك بعد أن تنقل عنك وسائل الاعلام الأجنبية والعالمية، وتتحدث عن هذا الكتاب وما به من فكر؟!

فسأله الشيخ مسلم عن سبب كتمانه لهذه الحقيقة خاصة بعد ما تعرض لما تعرض له من وراء هذا الكتاب، فكان رد الشيخ علي: إن أخلاقه أبت عليه أن يرفع قضية على صديق لعائلته، كما أن تقاليد العائلة تمنع من إحراج الضيف أو وضعه في موقف غير كريم"

وأمام هذا الكلام العجيب يسائل المرء نفسه: أي عائلة وأي تقاليد تعلو على حساب الحق؟!

يُضرب الإسلام في صميمه وقيمه وثوابته، ثم يقول لك الشيخ: تقاليد العائلة وعادات الأسرة! ألا فليعلو الحق ولتذهب العائلة إلى الجحيم.

كان بعض الأسوياء قد عزم أن يدخل انتخابات المجلس التشريعي تابعا لدائرة من الدوائر، فذهب لصديق له يعلم عنه أخلاقه ودينه وبغيته في الإصلاح، ولما طلب مؤازرته ووقوفه بجواره، اعتذر له وقال: لا يمكن أن أخالف رأي العائلة وتوجهها، لأنها تجمع على ترشيح عضو معين، قال ذلك وهو يعلم نزاهة صديقه ودينه ونزاهته التي لا يمتلك مرشح العائلة ربعها أو نصفها أو خمسها.

مرة أخرى: ألا فليعلو الحق ولتذهب العائلة إلى الجحيم.

لا زلت أتذكر ولا أنسى أبدا، كيف تشاجر رجل من قريتي مع أحد المشاغبين، فلما ذهب واشتكاه إلى أحد أقربائه قال له: أعلم أنك على الحق وأعلم أنه مخطئ، ولكن إذا حدث شجار وخلاف فأنا معه ولست معك، لأنه من عائلتي ولا يمكن أن أقف أمام رجل من عائلتي.!

وهنا لا نجد تعليقا للمرة الثالثة إلا أن نقول: ألا فليعلو الحق ولتذهب العائلة إلى الجحيم.

تذكروا الله في إبداعكم

أيها الأديب المسلم، إن دينك يحمل ميثاق العدالة والانصاف لبني الانسان، ولا يوجد بشواهد التاريخ والواقع والنصوص، أثمن منه في تقدير البشر وتكريم الإنسان، أي أنه رسالة يجب أن تعيش لها كما تؤمن بها، فهل سألت نفسك يوما في ضوء عملك وموهبتك وقدراتك الابداعية: ماذا قدمت لهذا الدين؟

وماذا وكيف دعمت بموهبتك رسالته وقيمه؟

أعرف أناسًا من زمرة الأدباء، يحملون ملة الاسلام، وآباءهم شيوخ في الازهر، وأسماءهم باسم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك لا يصلون ويشربون الخمر، ولا يصومون رمضان، ولكنهم مبدعون وأدباء ولهم روايات جميلة، وقصص فائقة، وجمهور يصفق لهم.

ومن المصائب التي حلت على تصوراتنا للأدب والأديب، أن يكون الأديب علمانيا أو شيوعيا أو ملحدا، لأن هذه الصفة التي لازمت كثيرًا من الأدباء، أو هكذا صورت لنا بعض وسائل الاعلام.

والحق أن هذا إفك كبير، فلو نظرنا ورجعنا لتاريخ عباقرة الصحوة الأدبية الأول في مصر، لوجدنا أن حظ الدين من كتاباتهم باهظ

كبير، ووجدنا منهم من أسهب في الكتابات الإسلامية حتى قيل عنه: أنه أقوى من دافع عن الإسلام في القرن العشرين، ولو نظرنا لتراث أمير الشعراء شوقي، لوجدنا الرجل ذو صبغة إسلامية وانتماء ديني عنيف، وكذلك حافظ رحمهما الله.

فلماذا إذن لا نحاكي هؤلاء الأدباء والشعراء في أصالتهم وتدينهم واعتزازهم بهويتهم، فيكون لها من إبداعنا نصيب؟!

إن قطاع الأدباء من الشباب الناهض في حاجة كبيرة، إلى استرجاع هذا الماضي من قادة النهضة الأدبية الحديثة في مصر، في حاجة إلى محاكاتهم وتقديم واجبه ورسالته نحو دينه وأمته كما فعلوا تماما، فقد كانوا يتصورون نعمة البيان التي حباهم الله بها، نعمة لابد أن يؤدوا شكرها وذكاتها لربهم سبحانه.

إن الأديب الفج هو ذلك الذي يفجر بقلمه، فلا يتورع أن يكتب فيما يغضب الله، وتغرية جماهير ضالة ساقطة ليعصي الله سبحانه وتعالى، ولكن اسمه في تاريخ الحياة الأدبية لا شك سيدونه في دفتر الأدباء الساقطين، وأديب آخر لا هم له إلا أن ينافق بقلمه ويجامل بأدبه، فلا شك أن مثله سوف يكون اسمه لامعا في ديوان المنافقين.

لقد حمل الأدباء الأُول كالعقاد والرافعي وشوقي وحافظ وغيرهم كثير، حملوا على عاتقهم عبء الدفاع عن الأصالة الاسلامية

والثوابت الدينية، بل والدفاع عن اللغة العربية أمام الاستعمار والغزو الفكري، فقدموا ما يبهر الألباب ويروي المهج.

لكن الاستعمار لم ييأس من غرضه، ولم يفتر عن هدفه، حين ظل يكافح ويجاهد، حتى رأينا ثماره البالغة في جيل من الأدباء لا تشغل الهوية والانتصار لها في وجدانه شيئا، بل نجزم اليوم أن سمة الأدباء القدماء في أدباء اليوم أو غالبهم تكاد تكون معدومة مبتورة، وإذا قرأت سطورهم وجدتها هابطة القيمة، لا تحمل رسالة ولا تنتصر لدين.. إنني لست واعظا يعظ، رغم أنني أحمل شهادة الواعظين، ولكني كاتب أحاول رد الأدباء إلى أصولهم، وتذكريهم بسلفهم، تراثا ورجالا.

وما أروع وصف شيخنا الغزالي لمهزلة الأدب العصرية من قوله: "إذا كان الأدب مرآة أمة ودقات قلبها، فإنّ المتفرس في أدب هذه الأيام العجاف لا يرى فيها البتةَ ملامح الإسلام ولا العروبة، ولا أشواق أمة تكافح عن رسالتها وسياستها القومية وثقافتها الذاتية، ما الذي أراه في صحائف هذا"

الزم حدك أيها الأديب

أكبر خطيئة حينما يكتب الأديب والقصاص في الفكر، ويظن أن القلم الذي اعتاد استنطاقه في الخيال، قادر أن يستنطقه في الأفكار، ساعتها سنرى ما تشيب لهوله الولدان شيبا، وما تكاد السماوات يتفطرن منه، وتخر الجبال هدا.

إن نضج الخيال لا يعني نضج الأفكار، وخصوبة الدراما لا تعني خصوبة العلم والوعي.

أنت تحتاج لكي تعبر عن رأيك أن يكون سليما، ولن يكون رأيك سليما حينما تكون لك ثقافة العوام، اقرأ وتعلم وادرس وتبحر، حتى يستوعب عقلك، وتتهذب روحك، وتصقل آراءك، وتتسع مداركك، وتصيب استنتاجاتك، وتستقيم تحليلاتك، ساعتها يمكن أن يتكون لديك رأي تعرضه وتنشره، ولا يشعر القارئ منه وأمامه بسطحيتك وقلة خبرتك، وضعف رؤيتك.

يعجبني ذلك الأديب الذي يحترم نفسه، ويحترم فنه قبل أن يحترم نفسه، ويؤمن بتخصصه وميدانه، ولا يغريه التصفيق والاطراءات فتقوده إلى ميدان لا طاقة به، ولا سلاح معه في معركته.

الزم بيتك وساحتك، ولا تخوض بحرا أعمق من قدراتك، حتى لا تضل وتُضل.

اقرأ في صفحات بعض الأدباء الذين تعجبني قصصهم، آراء في السياسة والدين والاجتماع والثقافة، فأضحك ملء شدقيَ من جهلهم، وقلة حصيلتهم، وقد كتبوا فهما لا يكتبه العوام، وإن من العوام من هو أعمق فهما وأهدى سبيلا، وليتهم اقتدوا بنجيب محفوظ الذي كان يعجبني في التزامه بفن الرواية، ورغم ثقافة الرجل، إلا أنه لم يخض ميادين الفكر، لأنه كان يحترم فنه، وكان يصرح بذلك: إنني ركزت في الرواية.

أما الذي يظن أن القلم يكتب في أي شيء، فهو مخدوع مغرر به، فالذين يصفقون لك في القصة، ستكشف أمامهم عوراتك، لتصغر أمامهم، وتهدم في أعماقهم، ما بناه إبداعك الروائي.

الفكرة لكي تكون من أصحابها، ولكي تنمو جذورها مكينة في عقلك، تتطلب رحلة طويلة، من الثقافة العميقة، والقراءة الثاقبة، والاطلاع الوافر.

ألا تعلم لماذا نرى كثيرًا من الأدباء يلحدون؟ ولماذا نراهم ينحرفون؟ ويصطدمون مع الأديان والقيم والموروثات، ويتمردون علي القيم والثوابت؟

لأنهم جهلاء في المقام الأول لم يدرسوا ولم يتعلموا، وليت الجهل يصيب العقل، بل يصيب الروح ابتداء، فلا تشعر بانتماء ولا تقدير ولا هوية ولا احترام، وتظل تعدوا في مرابض الجهالة، تقدم الإفك والزيف والزور، باسم الفكر والحرية، وهم أضعف من أن يتكلموا في أمره، أو يعرضوا دقائقه.

هناك حالات جمعت بين الأمرين، وقدمت جمالا في الميدانين، لكن الأكثرية الغالبة تقع في فخ الإغراء، إغراء القلم، الذي يوعز لهم، أنهم يمكن أن يكتبوا في أي شيء.!

انظر هنا في هذا النص الجاحظي، لتعلم أن المرض قديم وليس وليد العصر، يقول الجاحظ في رسائله:

"وقد يكون الرجلُ يُحسن الصِّنف والصنفين من العلم، فيظنُّ بنفسه عند ذلك أنَّه لا يَحمل عقله على شيء إلا نفذ به فيه، كالذي اعترى الخليل بن أحمد بعد إحسانه في النحو والعروض أن ادَّعى العلم ... بأوزان الأغاني، فخرج من الجهل إلى مقدارٍ لا يبلغه أحد إلا بخذلان الله تعالى."

يا جماعة إنه بشر . !

حينما يكون المناخ كله فاسدًا، يكثر الفساد ويتعدد المفسدون، بل يحدث ما هو أنكى من هذا وهو إبداع النفس وتفننها في صور هذا الفساد.. بعكس ما لو كان المناخ كله قيميًا رساليًا يقوم على الأخلاق والقيم والفضيلة، حيث يصبغ الجميع بجمال الأخلاق والتحلي بالفضيلة.

وهذا هو الفارق بين المجتمع الراقي الفاضل وبين المجتمع المنحط الذي يشب على الرذيلة، وتنبت فيه بذور العفن.

الناس اليوم تجد فيهم موجة عجيبة وهم يكذبون أي صلاح أو خير أو هداية، يدعيها أحد من الناس، ذلك لأنهم نشأوا في مجتمع قام على الفساد، وقل أو ندر من تجده مهتديا هاديا، ومن ثم لو وجد هذا المهتدي بينهم لا يؤمنون به، ولا يصدقون صلاحه وهدايته، ويتهمونه بالضلال المتواري، وأن في جوفه شيطان خبيث يتخفى وراء ثياب الهداية.

بل حينما تعيب على أحد من الناس خصلة سيئة ترى جمهورا عريضًا يدافع عنه بقولهم: ومن منا بلا ذنوب، ومن منا بلا جرم؟ وهكذا

صار هذا المفهوم هو القاعدة بين عامة البشر، لا لأنه طبيعة البشر ولكن لأنه كما قلنا وذكرنا أصبح السمة الغالبة للمجتمع الذي يشيع منه الفساد والمفسدين.. لكنه لو كان مجتمعًا طاهرًا يحث على الفضيلة والخلق، لكان له شأن آخر خلاف ما نرتئيه اليوم من عموم الفساد.

ولعل هذا الفهم هو الذي انبعثت منه همة عدد من المؤلفين والكتاب العلمانيين واليساريين الذين ينتقدون الحضارة الاسلامية وقيامها على القيم والأخلاق، وأخذوا يكيدون لمجتمعها ورموزها حينما دسوا عليهم سيء الأقوال والأفعال ورديء المواقف والاحداث، بحجة أنهم بشر يصيبون ويخطئون وليسوا ملائكة، وقد رأيت بعض الكتاب العلمانيين يومًا وقد ألف كتابًا عن أحد الأئمة، ولفق عليه بعض التهم والمفتريات التي لا أصل لها، ولما سألوه في ذلك قال لهم: سبحان الله إيه يا جماعه الرجل كان بشر مكنش ملاك.! وهكذا كل جناية هذا الإمام أنه بشر، ولأنه بهذه البشرية كان حفيا بأن يُفترى عليه الزور والبهتان.!

تلك إذن من قسمة ضيزى.. وهو نفس المنطق الذي تنتقد به ما جاء في كثير من مؤلفات طه حسين وجورجي زيدان من طعن في الصحابة والسلف الأول، فينبري لك من السطحيين من يقول لك: سبحان الله يا عم إنهم بشر مش ملائكة.! وغفل هؤلاء جميعا أن المجتمع الذي تعيش فيه الفضيلة، لا يُنتج إلا الفضيلة، ويصبغ كل من فيه بلون النقاء والهداية.. قرأت مؤخرًا ما جاء في حديث جابر رضي الله عنه قال:

قدمنا من سفر، فلما كنا قرب المدينة هاجت ريح شديدة، تكاد أن تدفن الراكب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بعثت هذه الريح لموت منافق، فلما قدمنا المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات"

وجاء هذا الحديث بلفظ ثان عن جابر قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فهبّت ريح خبيثة منتنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين"

وفي رواية: "إن ناساً من المنافقين اغتابوا أناساً من المسلمين، فبُعثت هذه الريح لذلك"

لقد كانت الذنوب والمعاصي تفوح لها روائح يعرفها الأطهار، ولما شاعت المعاصي في المجتمع اليوم، زكمت الأنوف فما عادت تميز هذه الروائح النتنة، كما ميزها السابقون الأطهار.

ولا نقصد بهذا الكلام أن نجرد المجتمع الطاهر من بعد الهِنات التي تحدث فيه، ولا ننكر هذا أبدا ولكننا نقر بأنها نادرة وضئيلة ومحصورة، بعكس مجتمع رتع في الرذيلة لا يمر له يوم إلا ويصدر آلاف المعاصي والجرائم وصور الحرام وألوانه المتعددة.

مما قرأت للشيخ الصابوني رحمه الله في كتاب له تحت عنوان النبوة والأنبياء قوله هل تكون العصمة لغير الأنبياء؟ فذكر كلاما لابد

أن يقرأه أمثال هؤلاء الذين لا يؤمنون بفضيلة بشري، إذ قال الشيخ: "والعصمة لم تثبت لغير الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إذ كل فرد من البشر معرض للخطأ والانحراف، والوقوع في المعصية، إلا أن الله عز وجل حفظ بعض أوليائه، من الكبائر، وصاتهم عن الرذائل، عن طريق والحفظ، والتأييد، وهذا من اللطف الإلهي، لا من «العصمة والتي خص الله بها رسله وأنبياءه.

قال تعالى: ويا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يوتكم كفلين (١) من رحمته، ويجعل لكم نوراً تمشون به، ويغفر لكم، والله غفور رحيم.

فالنور الذي أشارت إليه الآية الكريمة هو المراد باللطف الإلهي، الذي يكون للأولياء والأتقياء، أو للصديقين من الرجال، وهو من الحفظ والتأييد، لا من العصمة.. وقد كان من الصحابة الكرام من خصه الله بذلك الفضل الإلهي أمثال (أبي بكر) و (عمر) رضي الله عنهما، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وقال لعمر): والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجأ إلا سلك فجاً غير فجك يا عمر).

ودعوى بعض المخالفين بعصمة بعض الأشخاص لا صحة لها، ولا برهان من كتاب أو سنة، وإنما هي مجرد أوهام وأحلام، فما كانت (العصمة) لأحد إلا للأنبياء لأن الله جعلهم قدوة للعالمين، كما قال تعالى:

وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وابناء الزكاة وكانوا لنا عابدين) وكل انسان – عدا الأنبياء الكرام – معرض للخطأ ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: (ما منا إلا من رد ورُد عليه، إلا صاحب هذا القبر) يعني بذلك النبي صلى الله عليه وسلم بسبب العصمة."

لعل هناك ما لا يروقك

هو لون جديد من الفهم والإدراك، قد يفعله كثيرون عن جهل، وتفعله قلة عن علم، وقد تكبر من يفعله عن علم ويشتط غضبك ممن يفعله عن جهل!

بين الاكبار والامتهان، والخلاف والاتفاق، ترى كثيرون يدورون في فلك هذه المعادلة، كل له فيها قناعاته أو أهواءه التي يبني عليها وينطلق منها، إن كل إنسان يؤخذ منه ويرد، ولا معصوم غير النبوة، لكن هناك عقولا تتعصب لبعض الأئمة والمفكرين في كل رأي وكل مذهب، لا يتخيلون أبدا أنهم أخطأوا في شيء، ولا يمكن أن يخطئوا في شيء، وكأنهم ملائكة أو أنبياء معصومون.

فإذا ما عرضناهم لبعض آراء هؤلاء الذين يعظمون كلامهم في بعض المسلمات لديهم، نجدهم يعتريهم تخبط عظيم، يدور بهم في دوامة الجهل، ويلح عليهم أن يتركوا هذا التعصب وينحوه جانبا في دنيا الفكر والفقه والرأي.

إنها قطاعات عريضة من كل الألوان والأفكار والقناعات والتوجهات والمذاهب، تحيي هذه العصبية وتعيش عليها، ولا يمكن أن تتخلى عنها أو تناقش بدونها.

انظر مثلا إلى هؤلاء العلمانيين في بلادنا، الذين يعظمون الإمام محمد عبده، ويجعلونه رائد البعث العلماني، وأيقونة الفكر الحر، وفي ذات الوقت يصبون جام غضبهم على الخلافة العثمانية، ويسمونها بالاحتلال، ويصورونها بكل صفة بشعة مزرية، بينما غاب عنهم رأي الإمام في تأييده لهذه الخلافة، التي كان يعدها من صور العقيدة بعد الإيمان بالله.

انظر مثلا لمن يعظمون طه حسين، ويرون فيه معجزة زمانه ويحيون أدبه في كل وقت، ولا يصدقون عليه أي شائبة، إذا أخبرتهم يوما أنه قال من ضمن ما قال: إذا كان الاسلام حائلا بيننا وبين فرعونيتنا فعلينا أن ننبذه.

وهذا رجل يعشق محمد الغزالي، ويخيل إليه أنه مبعوث العقل الكامل والرؤية الصادقة، وعلى جهة أخرى يخسف بجمال الدين الأفغاني وتلميذه إلى سابع أرض، ويراهم من جواسيس الماسونية المتآمرين على الإسلام، فإذا قلنا له: إن الغزالي أشاد بالرجلين وبرأهما مما نسب إليهما، وجعلهما نواة البعث للصحوة الدينية، رأيناه يضطرب في خلل شديد.

قوم يرون توفيق الحكيم آية من آيات الشيطان، وداعية من دعاة التغريب، وعقلية جاهلة بقيم الإسلام، يوصون الغادي والرائح بحرق كتبه واتهامها بالسفه، بينما نطالعهم بما يصدعهم حينما نسألهم: هل نحرق كتابه مختارات من تفسير القرطبي؟!

قوم يرون الشيخ الشعراوي وليا من أولياء الله، ويتعاملون مع أقواله وتوجهاته بأنها الحق الذي لا مرية فيه، والصواب الذي لا صواب بعده، ترى ألسنتهم تنعقد وأعينهم تتوارى حينما نخبرهم أن الشعراوي كان يُمجد سيد قطب الذي يرونه من المتطرفين، بل ويستشهد بتفسيره وأقواله في دروسه.

قوم يعظمون طريق الصوفية، ويرونه بمفهومهم طريق الله الذي لا ينازع السياسة أهلها، ولا يعرفون عنه إلا أنه المسالمة المفرطة، والعزلة البالغة، وكأننا نحدثهم عن مذهب مختلف حينما نذكر لهم حال الصوفية المجاهدة، التي كانت تهب من محاريب الذكر لساحات القتال مجاهدة في سبيل الله.

لابد إذن من طريق وسط ورؤية عادلة وتقييم موضوعي، يفرض معه نبذ العصبية للأشخاص والآراء، والايمان بأن كل انسان وكل طريق يؤخذ منه ويرد، وأن هناك مالا يروقك من الأقوال والأفعال، إذا كان قائلها وفاعلها ممن يتعصب لهم عقلك، وينتصر لهم فؤادك.

قوة التأثير

هناك قوم يتأثرون بالمكتوب، وهناك آخرون يتأثرون بالمنطوق، وهناك غيرهم يتأثرون بالحال والواقع المشاهد.

وقد كان أحد الدعاة يدافع يومًا عن تعظيمه لشيخه فكتب يقول: يعيب علينا الناس أننا نعظمه، ولدينا العذر في هذا، فقد رأينا رجلا من السلف الصالح يمشي على الأرض.

أي أن شيخه تجسد أمامهم، في صورة السلف الصالح، وما قرؤوا عن أخلاقهم في الكتب.

لا أعرف هذه الحالة الغريبة التي كنا نشعر بها ونحن في دروس الراحل الفقيه الكبير الشيخ حسن أيوب رحمه الله؟ لقد كان الرجل مؤثرًا، وصوته نافذًا في أعماق النفس، ضاربا على أوتار القلب.

والتأثير وقوته وفاعليته في الغير، موهبة وخاصية وخارقة، لا يتمتع بها الكثيرون، وإذا أوتيها المصلحون، كانت أسهل أسلحتهم وطرقهم في تحقيق مكاسب كبيرة تخدم رسالتهم الإصلاحية، وتوفر لهم كثيرًا من الجهود حتى يجمعوا الناس على ما يريدون.

لقد عرفت الدنيا بعض الأئمة، ممن كان يؤثر في الناس، لا بكلامه ولا حاله ولا قلمه، بقدر ما كان يؤثر فيهم بمجرد النظر إلى عينيه التي كانت تحمل كثيرا من المعاني والقيم والغايات، بل قال بعضهم: كانت عينه تبعث على همة عظيمة، وكان إذا وقف ليخطب سحر الناس ببيانه، فلا يسعك وأنت تسمعه، إلا أن تسلم له بكل جوارحك.

وفي حياة السلف الصالح من كان يقف ليعظ الناس، فكان من شدة تأثيره أن يموت بعضهم من شدة وعظه على أنفسهم.

وعلى المصلح أن يتحسس مناط التأثير في نفسه، هل هو يؤثر في كلامه، أم في قلمه، أم في مواقفه العملية، وليوغل فيه حينما يتبين له المراد، حتى يكون أكثر قربًا ونجاحًا من تحقيق غايته.

ولكن الفعل يملكه كل أحد، فما عليك إلا أن تنفذ الحق في نفسك، حتى يراك الأخرون ويتبعونك فيه ويعجبون بتمسكك به، لكن الأصعب والذي يعد من قبيل المواهب الخاصة، أن يكون قولك مؤثرًا تبعث به الحماسة، وتفجر به الثورات العارمة، وتوقظ به النفوس الخاملة، إن الخوميني فجر الثورة بأشرطة الكاسيت، وقلب بخطبه الدنيا على شاه إيران حتى سقط عرش الطاووس، وقال أحمد أمين: "حدثني من أثق به أن الأستاذ جمال الدين الأفغاني كان يرتطن عجمة، ولم يكن فصيح اللسان، ولا سلسل القول؛ ولكن تجلس معه فيشعلك نارا دونها فصاحة

الفصيح وبلاغة البليغ؛ لأنها النفس مستودع كهربائي قوي يصعد أحيانا ويضئ أحيانا أخرى ويدفع للحركة أحيانا."

وهناك من يؤثرون في الناس بمظاهرهم وهيأتهم، فما أن تراهم حتى تحب أن تكون مثلهم، كأن ترى شيخًا معممًا ذو لحية كثة فتحب العلم والعلماء، أو تشاهد غيره في لباس الزاهدين وثوب المتصوفين، فتحب الزهد والتصوف.

وتعمد الحركات دومًا إلى تنصيب مناط قيادتها لمثل هذه النماذج المؤثرة، التي تتمتع بكاريزما قوية حتى يكون لها نتائجها المؤثرة في جمع الناس حولها وتأييدها لفكرتها، وتعمد في صحفها إلى تصدير أقلام المحترفين منها الذين يملكون أو تملك أقلامهم إيقاظ مشاعر الناس.

إن مثل هذه المظاهر والمؤثرات يمكن أن يكون لها فعل السحر في الإنسان، ومع وجودها لا يلتفت الانسان إلى شيء يضره أو ينفعه، لقد كان ناصر يتمتع بكاريزما قوية، يؤثر بها على الناس بهيئته وخطبه، وهو في ذات الوقت، قد أغرق البلاد في الهزيمة والضياع، ومن العجب أن الناس حتى هذه اللحظة تجد أكثرهم ما زال متأثرا به، يعلق صورته، ويعيش في أيامه ويراه رمز الخلاص وقد كان في حقيقته رمز الهوان والضياع والهزيمة.

لقد كانت قريش تعيش في فزع كبير من القرآن الكريم الذي كان يردده رسول الله صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة، لأنه كلام

مؤثر، كانوا لا يخشون منه على العامة وحدهم، وإنما كانت فتنته تتسرب إلى الخاصة أنفسهم حتى قال فيه سيدهم قولا ما قيل من قبل: والله إنه لحلاوة وإن عليه لطلاوة...

ولا شك أن فاعلية التأثير في القول والقلم قد تضيع وتنتهي وتذوب لو خالفها واقع الكاتب أو المتحدث، فكيف يأمر بالفضيلة وهو عربيد؟ وكيف يحث على البطولة وهو جبان؟

فإذا كنت تتمتع بملكة التأثير في أمر من الأمور الثلاثة، ولا تفتقر في غيرهما، فاحرص ألا يراك الناس فيما لا أثر لك فيه، حتى لا يضيع تأثيرك فيهم، فيما تملك التأثير فيه.! كأن تكون مؤثرًا في الحديث، لكن حالك لا يوافق أطماح لسانك.

والتأثير مستويات، فهناك من يؤثر على العامة، ولا يؤثر على الخاصة، وهناك من يؤثر على الخاصة، ولا يؤثر على العامة، وهناك من يؤثر على الجميع.

وعليك ألا تستهين بأي شيء أمامك، فربما كانت لديه قدرات خارقة، وسرا يحتويه بين نفسه يمكن به أن يكون له تأثير عظيم، حتى الضعف والتمسكن وقلة الحيلة والظلم، يمكن أن يكون له تأثيره العارم في نفوس الناس وتهييج الجماهير لو حدث ما يثير مهجهم له.

المرأة التي خانها الرجال

ماذا لو كنت قبيح الهيئة دميم الصورة، فهل يعني هذا أن أحقد على أهل الجمال وتصيبني عقدة من كل إنسان بهي الطلعة حلو القسمات؟! ماذا لو كنت قصيرًا، فهل يعني هذا أن أبغض الطول وتصيبني عقدة من كل إنسان سوي الحسد؟! ماذا لو كنت فقيرًا، فهل يعني هذا أن أكن السوء ويمتلئ صدري غلا لكل غني رزقه الله؟!

بل ماذا لو تعرضت لظلم أو قهر، فهل يعني هذا أن أحقد على كل الناس لأنهم لم يمسهم ما مسني من ضيم وعسف؟!

إن هذا ظلم كبير، ويعبر عن نفس غير سوية وغير راضية بقضاء الله واختياره لعباده.

لا تجعل أي ألم في نفسك أو أي حزن يخيم على قلبك، ليكون عقدة نفسية ينعكس مرارها على الناس والحياة، فتملأها شرًا وتفسد أجواءها بسوادك الداخلي.

إنني منصف مع نفسي، موضوعي فيما وقع علي، فمهما أصابتني الحياة بمواقفها المحرجة المؤلمة، فلا يمكن أن أجعل ما أزعجني منها ينعكس على سلوكي ويوجه رأيي، ويتحكم في ميولي وأفكاري تجاه الناس من حولي، والمجتمع الذي أعيش فيه.

فالحق دائمًا في وجداني هو القيمة العليا التي لا ينتصر أو يتغلب عليها أي هوى أو رغبة، أو تنفيس عن غضب وعقد قد اعتل بها وجداني.

أعرف أناسا تمور دواخلهم بالسخط العارم تجاه فكر أو توجه أو تيار أو حزب أو دولة أو عرق أو قبيلة أو تاريخ أو مؤسسة أو جماعة، فإذا ما بحثت وراء هذا الحقد العارم، الذي تبهرك شدته وعنفه، وجدت أنه لم ينبع من قناعة أنفسهم، وبصيرة أفكارهم وآرائهم، وإنما يرجع منبع هذا الكره والتجني، إلى موقف مؤلم أصابهم بعض أتباع من يعلنون بغضهم ، فنمت في أنفسهم عقدة مفزعة، ترجمتها آراء ظالمة ضالة فاسدة شاذة، لا تمت للحق والانصاف بصلة أو رباط.

قد يكون هذا الشعور أو هذه العلة، مقبولة في عوام الناس، حينما تنقصهم الثقافة والوعي الذي يهذب الضمائر، لكنها تكون حقيرة المدى حينما تصدر من نخب المثقفين.

هناك رجل عربي يلعن مصر ويبغض المصريين، وكل ما ذكرت أمامه مصر ولو كانت في آية تتلى من القرآن، ولى غاضبًا قاذفًا لاعنا ساخطًا، فلما بحثنا وراءه وسألناه عن السبب، فإذا به يروي حادثة نصب واحتيال تعرض لها من أحد المصريين.

ربما له الحق في الغضب والسخط مما حدث، لكن ليس له الحق أبدًا أن يعمم هذا السخط على شعب كبير وعظيم، فيه من الأخلاق والقيم والقمم ما تتندر في كثير من الشعوب.

إن هذا الخلل في الاتهام، لا يعبر عن نفس غير سوية فقط وكما أشرت سابقا، وإنما يعبر في المقام الأول عن عقل معتل ووعي مريض ونظر ضال معتم الرؤية.

بالأمس استمعت إلى مقطع مرئي لأحد الإعلاميين وهو يتحدث عن الراحلة الدكتورة نوال السعداوي وآرائها الصادمة في المرأة والجنس والدين، فعبر سيرتها الذاتية والعائلية، مرت بكثير من المنعطفات الخطيرة والمؤلمة القاسية في طفولتها وصباها وزواجها، وتركت هذه الأحداث الغائرة، آثارًا سلبية جعلتها تتبنى أو تبتكر هذه المواقف الشاذة في الدين والرجل والجنس.

ونُقل أنها تعرضت للخيانة من كل الأزواج الذين ارتبطت بهم.

ولعل هذه المصائب التي نزلت بها تفسر لنا بعمق، كيف كانت أسيرة آلام وجروح لم تندمل، وإنما تطورت ونمت وصارت ترمينا بكل غريب عجيب من الأقوال والآراء التي تعادي الدين والفطرة، لقد فَجَرت المرأة في خصومتها وأفكارها ولم تكن حسب رؤيتي أسيرة رأي ووجهة نظر، بل كان يحركها ابتداء عقد متنامية كأنها وحش كاسر يسكن في روحها المتقلبة، فلا يعرف حرمة لأي شيء ولا حدودا لأي رأي.

حتى في هجومها على المتدينين وعدائها لهم، لا أشك أن وراءه عقدة كبيرة لا نعلمها، انعكست على الإسلام كله، إذ يبدو أن هذه السيدة

كنت سريعة الانفعال بما يصيبها من إيذاء وشرور، وكانت ترفض أن تصبر وتحتسب وتلجأ إلى ربها في كل مصاب ألم بها، وإنما كانت متمردة ثائرة ترفض كل ما يمت أو يعبر عمن تسبب في إيذائها حتى ولو كانت هذه الصلة هي الدين نفسه.

فالدكتور محمود جامع في كتابه (وعرفت الإخوان) يروي ما يثير العجب، حينما كانت الراحلة زميلة له في نفس دفعته في كلية الطب، وروى أنها انضمت لجماعة الإخوان، وتحجبت في ملبسها، وغطت شعرها، ونجحت في أن تنشئ قسما للأخوات المسلمات من طلبة الكلية، كما أنشأت لهن مسجدًا في الكلية، وأمتهن في الصلاة فيه، بل ذكر جامع كيف كانت نشيطة متحمسة، حينما نجحت في إقناع كثيرا من الطالبات ليتحجبن، وكانت تخطب في حفلات الكلية ومناسباتها باستمرار.

يقول جامع: "ولكن للأسف انقلب حالها وتغيرت أمورها إلى ما وصلت إليه الآن واتهمت بالإلحاد والإباحية."

ولا شك عندي أن محمود جامع، ولقربة من نوال السعداوي، ولكونه كان حلقة الوصل بينها وبين الإخوان، يدرك ويعرف سر هذا التغير المريع، والانقلاب مدهش، بل لا شك عندي أنها تعرضت فيه إلى ظلم أو جور سبب لها عقدة نفسية جعلها في الصفوف والأولى من أعداء هذا التيار، بل جعل هذه العداوة تتطور إلى معاداة الدين نفسه بتعاليمه

وشرائعه، وهي العقد التي فسرها العلمانيون والملحدون بأنها: تنوير وحرية فكر.

ليكن هجومها على الجماعة وأفرادها مقبول، لكن ما ذنب الإسلام في القضية.. إنها تكره كل يذكرها بهم.

أمة ماجنة أم مجاهدة؟

تتجمع فينا كل العلل، وتظهر فينا كل الهنات، فلا نحن أمة مجد، ولا نحن أمة جد.

إنني حينما أتأمل تلك الشُبه التي ألصقها التغريبيون بأمتنا واتبعوا فيها سادتهم وآلهتهم من المستشرقين، أتبين عجبًا.

فمرة يصفون ديننا وحضارتنا بأنها حضارة إرهاب ودماء، ومرة أخرى يصمونها بأنها حضارة دعة وترف ومجون وفسوق.

ولعمري كيف يستقيم الأمران معًا.؟! كيف نكون أمة مجون وترف وفسوق وشهوات، وفي ذات الوقت أمة مجرمة تسفك الدماء وترهب العوالم؟!

لقد اجتهد طه حسين من قبل وتبنى منهج أساتذته المستشرقين، حينما وصف حقبة تاريخية من أزهى حقب الحضارة الإسلامية وهي

العصر العباسي واتهمها بأنها حقبة داعرة ماجنة إباحية، معتمدًا فيها على الروايات الكاذبة المدلسة الواردة في كتاب الأغاني، وحاول تصوير هذه الفئة الشاذة التي ضمها كتاب، بأنها المعبر الحقيقي عن حال الأمة وطبيعة العصر.

وزورًا وإفكا قال، فهذا العصر هو عصر البطولة والعلم والتقوى والزهد والورع والرقي والتقدم والتفوق والجهاد والحضارة في أزهى معالمها.

ولكنهم يغيظهم أن ينتسب للإسلام أي فخر فيحاولون أن يجتروا عليه السوء والتشويه.

كما زعم واهمون من أرباب الثقافة واستحسنوا عمل المستشرقين في ترجماتهم الأدبية، والقوم لم يكن لهم غرض شريف في هذا المنحى، فما أقدموا على ذلك إلا للترويج لأن هذه الأمة.. أمة الترف والشهوات والمجون.

ثم إنني أتعجب وأقول: كيف تكون هذه الأمة أمة مجون وترف وفسوق، وهي التي ركّعت دول العالم بالسيف والقوة خاصة في هذا العصر الذي يتهمونه بأنه حقبة المجون.

كان المسلمون فيه هم القوة القاهرة، وجيوشهم لها الغلب العظيم، فلا تقوى أمة في العالم أن تقاومهم.. كيف لقوم يمتطون ظهور

الجياد، يطلبون الموت، وينازلون العدو، ثم يكون مجتمعهم وحياتهم حياة المجون والترف؟

وكل هذه الحيل والتهم للأسف تجد الرواج عند كثير من الناس، لأنهم لا يقرؤون ولا يدرسون ولا يمحصون.

فالتلفزيون يفخم ليل نهار في عميد الأدب العربي، ويصور لك أنه أعجوبة عصره ومعجزة زمانه، ومن ثم تقدم أنت كقارئ على اقتناء كتبه، لترى مثل هذه السموم وهذا التجني الرهيب على مجدنا وحضارتنا وتاريخنا.

وهي ذات الفرية التي حاولوا خلعها على الخليفة المجاهد هارون الرشيد، فنسبوا له كذبًا وإفكًا ليالي المجون والعبث بالجواري وسماع القيان وشرب الخمور.

وما كان الرجل إلا تقيا نقيا مجاهدا عابدا بكاء من خشية الله.

ولعلنا هنا نذكر أو ننقل طرفا من التاريخ لهذا الخليفة الذي يدعون مجونه، لترى وتنظر كيف كان المجون على أصوله، خليفة ماجن لعصر ماجن.

بعث نقفور الأول إلى الخليفة رسالة تخلو من اللباقة والاحترام يبلغه فيها بتوقفه عن دفع الجزية: "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك

العرب، أما بعد فإن الملكة إيريني التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البَيْدق، فحملت إليك من أموالها، ما كنت خليقًا بحمل مثله إليها، ولكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وأفتدِ نفسك بما يقع به المبادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك."غضب الرشيد غضباً شديداً لدى قراءته رسالة نقفور فما كان منه سوى أن نص جواباً مقتضباً على ظهر رسالة نقفور وبعثه مع نفس الموفد الذي حمل الرسالة "بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون الرشيد أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه لا ما تسمعه!".

لم يتأخر هارون الرشيد في تنفيذ وعيده، فلقد شنّ الجيش الإسلامي هجوماً على كابودكيا بقيادة ابنه وحاصروا العديد من الحصون الحدودية وحرروا أكثر من ٣٠٠ مسلم كانوا في أسر البيزنطيين، لكن الرد الأقوى كان أواخر عام ٨٠٣م عندما ترأس الخليفة الرشيد بنفسه جيشاً جرارا وهاجم الأناضول فحاصر حصن هرقلة المنيع، فهبّ نقفور لإنقاذ الوضع فانتقل إلى الأناضول وبعد شهرين من المفاوضات مع الخليفة تم التوصل لوقف الأعمال الحربية مقابل دفع الجزية مجدداً."

الذين حرقوا المعرفة

نأسى ونحزن ونتندر بما ضاع من الكتب العربية والتراث الإسلامي على يد التتار الذين رموا بالمكتبة العربية في نهر دجلة حتى تغير لونه.

وتظل هذه الحادثة أوحدية في تاريخ المسلمين وهم يعزون أنفسهم بمصابهم الثقافي والحضاري الكبير.

والحق أن تاريخ المسلمين كان فيه أبشع من صنيع المغول بمكتبة بغداد.. فكلنا يعرف ما بلغته الحضارة والوجود الإسلامي في الأندلس من الرقي والتقدم والازدهار المعرفي.. ولا أعرف لماذا تغطي جريمة التتار على جريمة النصارى الإسبان مع أنها كانت أبشع وأقبح وأشد نكاية فقدا وخسرانًا للبشرية والوجود الإنساني كله.

يحلو للبعض أن يسميهم بالأندلسيين، لكنني أصر على تسميتهم بالنصارى الإسبان، للتذكر دائما بأن من فعل هذه الجرائم التي يندى لها جبين البشرية والإنسانية نصارى غير مسلمين.

منذ أيام كنت أقرأ في كتاب (في ميزان الإسلام) للعلامة الراحل محمد رجب البيومي، وقد ذكر في معرض دفاعه عن نسبة حريق

الإسكندرية لسيدنا عمر بن الخطاب فقال: "لماذا لم يبك هؤلاء المغرضون على التراث الإنساني الرائع الذي أحرقه الإسبان حين استولوا على الأندلس، وقد سجل التاريخ أن عشرات المكاتب قد أحرقت عمداً في غرناطة ومدريد وقرطبة وأشبيلية، وكانت هذه الكتب خيرة ما وجد في أوربا دون استثناء! وماذا تكون مكتبة الإسكندرية – على نفاستها الزمنية – إذا قيست بما وجد في الأندلس من مكتبات!"

نعم فبعد سقوط الأندلس أمرت السلطات الإسبانية الجديدة – عبر التهديد والوعيد ومحاكم التفتيش– السكان المسلمين بتسليم ما لديهم من الكتب والمخطوطات، وأن عملية جمع الكتب استمرت ٧ سنوات، وبعد ذلك أُحرقت الكتب والمخطوطات التي تم جمعها في غرناطة في منطقة باب الرملة، وقَدر كثير من الدارسين الغربيين ما تمّ إحراقه ذلك اليوم بمليون مخطوطة.. ذكر ذلك المؤرخ الدكتور عبد الرحمن الحجي

ولكننا الآن وبعد كلام الحجي والبيومي نسوق اعترافات الغربيين أنفسهم ممن جسدوا ووصفوا هول المهزلة الحضارية .

الباحث والكاتب الغربي ريتشارد أوفندن – مدير مكتبات البودليان الشهيرة في أكسفورد والمسؤول الـ٢٥ الذي يشغل المنصب التنفيذي الأول في مكتبة جامعة أكسفورد منذ عام ١٩٨٧م– كان له مؤلف ثمين سجل فيه هذه الجرائم البشعة للنصارى الإسبان ضد العلم

والمعرفة وسمى هذا الكتاب (إحراق الكتب: تاريخ الهجوم على المعرفة) -الصادر حديثا بنسخته العربية عن الدار العربية للعلوم ناشرون- حيث يروي فيه أنه كان هناك أكثر من ٧٠ مكتبة في إسبانيا الإسلامية، ولم يعرف العالم أمة أحرقت كتب غيرها من الأمم أكثر من إسبانيا.

وأبدت المستعربة الإسبانية الدكتورة كارمن رويث برافو تحسرها على فقدان تلك المعرفة، وتقول إن ذلك "أثّر في ذاكرتنا وتجربتنا الجماعية تأثيرَ المأساة والفقدان".

وتضيف "تمّ إحراق كتب عربية في غرناطة من قِبل الضباط في الجيش المنتصر على المملكة الأندلسية في ١٤٩٢م، وما يزيد على خطورة العملية ومأساويتها أنها تمت بعد توقيع اتفاقية وعدت باحترام حقوق الغرناطيين الدينية والثقافية".

وتابعت "نعرف أنَّ كثير من الكتب النفيسة النادرة العربية الأندلسية أُرسلت إلى الخارج وبيعت، كما بقي بعضها في المكتبات المؤسساتية الرسمية، كمستشفى غرناطة الملكي، أو في مكتبات خاصة لأشخاص ذوي مكانة وقوة وثقافة نهضوية".

وبينت كارمن برافو في -تصريحها للجزيرة نت- أنه "مع مرور الزمن تبنّى حكام إسبانيا نمطا من الثقافة السلطوية ازداد استبدادا ومبالغة في الوحدوية، إلى حد أنهم منعوا استعمال اللغة العربية، كما منعوا

امتلاك الكتب أو المخطوطات المكتوبة بها.. وبقيت الثقافة الإسبانية على هذه الحالة إلى بداية القرن الـ١٨".

وبدوره، يؤكد المستعرب فيراندو فروتوس -للجزيرة نت- أنه من المعروف أن الكاردينال سيسنيروس الإسباني -وهو أمين سر الملكة إيزابيلا- أمر في عام ١٥٠٠م بإحراق ما يزيد على ٤ آلاف مخطوطة عربية ذات طبيعة دينية وتاريخية وشعرية محفوظة في غرناطة، ولم يستثن منها سوى ما يتعلق بعلوم الطب.

ويتابع "رغم كل ما حدث في تلك الحقبة من الزمان -من الاعتداء على المسلمين وعلى لغتهم وعلى ثقافتهم- فإن الثقافة الإسبانية اقترضت من الثقافة العربية عناصر وجوانب مهمة".

وأريد أن أسجل من هنا أن الغرب الذي يتهمنا اليوم بأننا أعداء الحضارة، إذا نظر إلى تاريخه وتجنيه على مصادر المعرفة لعرف وأدرك أنه العدو الحقيقي للحضارة الزاهية، وأن هذه الأمة التي يتجنى على تاريخها بالتشويه، كان تاريخا لامعا مدهشا قدم الكثير والكثير للإنسانية، ولكنهم قابلوه بالجرائم التي يتناسونها اليوم.

الحق فوق كل اعتبار

ما أروع رسولنا الكريم وهو يعلمنا أن الإنصاف ونصرة الحق فوق كل اعتبار، بل يعلمنا أن قيمة الحق، تظل مكانتها العالية، بعيدة عن الأشخاص والأسماء والذوات، لأن الحق هو الحق، يمنح الشرف لكل من ينتسب إليه، وليس العكس.

انظر إليه حينما جاءه أسامة بن زيد رضي الله عنه يحادثه في أمر المرأة المخزومية التي سرقت، فرد عليه غاضبا منكرا بقوله: أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟!

"والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطع محمد يديها."

يا ل العجب.. أو تسرق فاطمة؟

أو يمكن أن تلصق السرقة بفاطمة.؟!

أو يمكن أن تقال مثل هذه الجملة؟!

نعم يمكن أن تقال، بل قيلت فعلا على لسان سيد الإسلام، لأن الدرس الأعظم الذي يريد منا أن نتعلمه هو، أن الحق فوق أي اعتبار وفوق كل الأشخاص.

وهو ما أكده علي رضي الله عنه بقوله: اعرفوا الرجال بالحق، ولا تعرفوا الحق بالرجال.

سمعنا أن في الصحابة من سرق وأقيم عليه الحد، بل سمعنا أن في الصحابة من زنى وأقيم عليه الحد، وسمعنا أن في الصحابة من خان وحوكم في ذلك.

قف أيها المستمع وتأمل، فإنني أقول الصحابة.. فهل تعرف ما معنى كلمة الصحابة؟ يعني هذا رجال محمد، الذين قام الإسلام على أكتافهم وعلت رايته بجهادهم.

الصحابة أعظم الناس إيمانا ويقينا وقربًا من الله، ومع هذا كان فيهم من سرق وزنى وخان.. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ليقول قائل: ياليت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخفى أمر الصحابة الذين فعلوا مثل هذه الأفاعيل، وحاكمهم أو عاقبهم في السر، حتى لا يعلم الناس، أن في الصحابة من أجرم، فيكون ذريعة في الطعن عليهم وتشويه صورتهم، وزلة يعيرون بها عبر التاريخ.. والحق أن القائل لمثل هذا الاقتراح، قاصر عقله، ضعيف فهمه.. لأن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يقدس البشر على حساب الحق والحقيقة، ومن هنا أعلن الحدود وأقام الدين، ولو على حساب أهله وأصحابه، غير عابئ بمثل هذه الترهات التي نجدها اليوم، كلما انتقدنا شيخا أزهريا أو رائدا من رواد

الحركة الدينية، فنجد من يلومنا ويخاصمنا، بحجة أننا منحنا العلمانيين والملحدين فرصة في تشويه المتدينين، والعدوان على الأزهر حصن الدين، حينما يحتجون بملامتنا للشيخ فلان والشيخ علان.

ليكن الحق صريحا واضحا مقدما في كل موقف، غير عابئ بتربص الخصوم الماكرين، الذين يحقدون على طول الخط، سواء وجدوا فرصة أم اختلقوها.

بل كان أحد أساتذتي يلاحقني دوما كلما انتقدت شخصية من رموز حضارتنا وتاريخنا الإسلامي، ويقول لي بملء الفم: هل انتهيت من ذكر المواقف الإيجابية حتى تتصيد هذه الهنات؟

لماذا لا تظهر الوجه المشرق للتاريخ، حتى لا يكون ما تقوله حجة لذوي الأغراض.؟!

وأنا هنا وأمام هذا اللوم، أقتفي أثر النبوة أكثر ممن يلوموني، حينما ساقتهم الحساسية المفرطة والقلق من المتربصين بالإسلام، أن يجافوا الحق، ويدعون لكتم الحقيقة.

منذ فترة قرأت في وحي الرسالة للأديب الكبير أحمد حسن الزيات، وتحت عنوان العقيدة الساذجة، موقفا عن أحد شيوخ الأزهر حيث قال: "تذكر معنى الزكاة في دين الله، ثم قل لي: أين منها ما كان

يصنع أحد شيوخ الأزهر، وقد كان يملك في القاهرة شوارع بها عليها من البني عن شمال ويمين؟ لقد حدثوا أنه كان يجعل زكاة ماله كلما حال الحول في قفة؛ ثم يغطي الذهب والفضة بطبقة من الحنطة؛ ثم يأمر فيأتونه بأحد المساكين الذين يتكففون على حاشية الطريق، فإذا أدخل عليه قال له: (هذه زكاتنا يا رجل، آثرناك بها ابتغاء مرضاة الله) فيدعوا المسكين ويهم بأخذ القفة؛ ولكن الشيخ قارون يريد أن يخفف عنه ويختار له، فيبادره بقوله: (وماذا تصنع بها يا رجل، وليس عندك من تطحن وتعجن وتخبز؟ أتبيعني إياها بكذا قرشا؟) فيلهج المسكين بالدعاء، ويبالغ في الحمد والثناء، ثم ينصرف بالقروش، وتعود مئات الدنانير المروعة آمنة إلى صدر الخزانة الحنون!"

وتخيل أنت اليوم لو أنني كنت من روى هذه الحادثة الصادمة وخرجت بها على القراء، لكنت قد واجهت عاصفة من إخواننا الأزهريين، يلومون ويشكون ذكري لهذ السلمة التي تنال من الأزهر وتحط من قدر رجاله، ذلك لأنهم يقدسون الأشخاص والهيئات أكثر من تقديسهم للحق.

أما حجتهم في كتم الحق من أجل الحقدة الكائدين، فهو وهم كبير، لأن هؤلاء الكارهين يعيبونك حتى في أنفاسك، وينتقدونك حتى في هديك، وإذا أعجزهم أمرك، تقولوا عليك بهتانا وافتراء، فلم ولن تسلم منهم أبدا، أخطأت أم لم تخطئ، وعليه أقم الحق وعلى حساب نفسك، فالحق أحق أن يتبع.

المنطقة الرمادية

في مقال لي عن المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان، والذي كان بمثابة زلزال لدى كثير من القراء والأصدقاء، حتى أن بعضهم ممن أقدرهم وأجلهم تواصل معي وأخبرني أنني دمرت ثقته في الرجل، وأنه في حالة اندهاش، فقد كان يظنه ممن وهبوا أنفسهم لحماية الإسلام والتصدي للزيوف المنكرة الكاذبة التي تلحق بتاريخه، وذلك عبر موسوعته الأشهر عن دولة الإسلام في الأندلس، وأنه للأسف لا يقبل بالمنطقة الرمادية، فإما أن يكون أبيضًا أو أسودا.

والحق أنني لا أريد أن أهدم الرجل، ولم يكن قصد مقالي أن أدمر هذه القيمة التاريخية الكبيرة، ولكني أصحح بعض المفاهيم، حتى لا ينجرف القراء بأهوائهم في اتجاه غير صحيح.

محمد عبد الله عنان مؤرخ كبير لا شك، ومصدر من مصادر التلقي الصادقة الصحيحة، ولكن كما قال الإمام مالك: (كل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر) ولعل قولة مالك تنطبق بدقة على الأستاذ عنان رحمه الله، فعنان الذي كتب بروح المسلم عن دولة الإسلام في الأندلس، ورد على مؤرخي الغرب وبين أكاذيبهم في عبقرية مدهشة، هو

نفسه عنان الذي وقع في أحابيل المؤرخين الغربيين، وصدق وردد كذبهم المفضوح والملفق عن الدولة العثمانية وخلافتها العالمية.

الرجل إذن لم يكن معصومًا، وكما نجح في ميدان، لكنه سقط في ميدان آخر، يعرفه المؤرخون المتحققون جيدا.. وكما أنصحك اليوم بقراءة موسوعته في تاريخ الأندلس، فإني أنهاك بشدة عن تصديقه فيما عتب عن العثمانيين.

لقد اعتمد على مصادر غربية وعدوة وغير منصفة لحقيقة العثمانيين، ولم يتحر كما فعل في تاريخ الدولة الإسلامية في الأندلس.

لقد نشر في مجلة الرسالة عام ١٩٤٠ مقالة قال فيها: " وإذا كان الإسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتز بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة"

وهذا كلام منكر لا شك فيه، فقد أعز الله الإسلام بالعثمانيين، وكانت فتوحاتهم في الشرق والغرب تعلي راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، مما حدا بأمير البيان شكيب أرسلان أن يعبر في شعره عن هذا الهوى فقال:

أحبكم حب من يدري مواقفكم ** في خدمة الدين والإسلام من حقب.

وهذا الكلام مما أفزع شيخ الإسلام مصطفى صبري وقام بالرد عليه، وعنان رجل في قمة الغرابة، فالذي كتب التاريخ الأندلسي بروح المسلم، هو نفسه من كتب عن العثمانيين بروح المتغرب، مما يضعك في حيرة واستعجاب، فهل تعلم أنه كان مسرورًا ومؤيدًا للخطوات التي أعلنها الكماليون في هدم معالم الإسلام.

لقد وصفه صبري بأن في قلبه مرض وعلى بصره غشاوة من معاداة آل عثمان، وأنت هنا تريد البحث عن السبب في عداء عنان للتاريخ العثماني وإسلامية تركيا، الذي كان موقفه فيه تغريبيًا بامتياز، حتى أن المسألة لديه كما وصفه من اقتربوا منه، قد تحولت لمسألة نفسية، فقد كان لا يطيق اسم العثمانيين، وهو مما يدل على غلبة الهوى عند الرجل، وهو الموقف الذي لابد أن يتنزه عنه مؤرخ موضوعي يبحث عن الحقيقة وحدها.

ولم يكن عنان يجهل صيحات الشخصيات المعتبرة من الشرق والغرب التي تدافع عن العثمانيين، وإنما كان يعلمها، ولكن الرجل تحكم فيه هواه بقوة أمام جملة العثمانيون والإسلام.

إن بعض المتابعين قد راعهم اتهامي للرجل وإظهار ما أعلنه من عداوة الشريعة، وطالبني بعضهم بالتغاضي عن هذا الأمر حتى نظل نعتز بمؤرخينا الكبار، وكأن الرجل قد لقي رجلا في الطريق فسبه، أو أنه كان به بعض الهنات اليسيرة والمعايب الطفيفة التي لا تنكر قيمته، ولكن

أفيقوا يا قوم، فالرجل تعدى على الشريعة وكان له هواه التغريبي، الذي اختلط بهواه الإسلامي، فإذا وجدت الإسلامي فلا يجوز لك أن تنكر التغريبي، وإذا أنكرت التغريبي فلا يجوز كذلك أن تنكر الإسلامي، ولكن تبقى الخطورة، فمن يباهون بعنان وسموه ويمنعون أي حديث منكر عنه حتى تظل قيمته التاريخية بازغة، أحب أن أقول لهم: ماذا بكم لو قرأت الأجيال كلامه في موقفه المنحرف عن العثمانيين؟ هل يسركم أن تتبنى الأجيال هذا الكذب الصراع على دولة خدمت الإسلام أكثر من ٥ قرون.

إن عبد الرحمن عزام بك أمين الجامعة العربية سابقا، كان يشهد للقوم بما أجحفه عنان، حينما كتب في الأهرام عام ١٩٤٤م مقالا تحت عنوان آخر الخلفاء: " ولما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية، يتوالد فيها الفلاحون للعبودية، كسروا أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الفردية، فهم من قضوا على نظام الإقطاع والأرستقراطية، ليحل محله نظام المواطن الحر، والرغبة المتساوية في الحقوق"

هكذا يكون الكلام، وهكذا يكون الصدق، أما أن نؤمن بأكاذيب الغربيين وافتراءتهم على الدولة العثمانية، فهذا ليس من الإنصاف في شيء.!

ويبقى عنان في نهاية الأمر عدوا للدعوة إلى تطبيق الشريعة، ومن المؤمنين بعدم صلاحيتها العصرية، لا تنسوا هذا من فضلكم.!

يا دكتور ما هكذا تورد الإبل

سلامة موسى.. رائد من رواد التنوير أم الظلام؟

كتب أحد الأساتذة الجامعيين في ميدان النقد والأدب مقالا طويلا عن سلامة موسى، محاولا أن يثبت فيه صورة مشرقة للرجل والزعم بأنه من دعاة التنوير، بل بطل التنوير المفدى.

والحق أنني أتعجب والدهشة تتملكني من دعوة الدكتور المحترم إلى أن ما كتبه بعيد عن المغالاة والأحكام المجتزأة والمسبقة وذكره الصريح: إننا بحاجة إلى التصالح مع أنفسنا والاعتراف بالمخالف ودراسة آثاره ومنجزه الفكري بشكل منصف.

ثم يقول: الوسط الثقافي في مصر غارق منذ عقود في الوحل حتى أذنيه، إقصاء وتخوين وشللية مقيته فأهل اليمين يحتفون برموزهم ويبرزون الجيد والتافه والغث والسمين ويضعون مقاييسهم الخاصة بهم في فهم النصوص وتحليلها وكأنها وحي من السماء، وأهل اليسار يغلقون حظيرتهم على أدبائهم وكتابهم ولا يسمحون لأحد بدخولها.

وأنا هنا لا أعرف أن من الإنصاف أن نسير في ركاب سطورنا ونحن نجمل الصورة المطلقة، بل إن الواجب الثقافي والفكري والأدبي، يقتضينا أن نبرز المحاسن والمساوئ معًا، وحقيق أن سلامة موسى كان له دوره التنويري، لكنه في ذات الوقت، كانت له دعوات ظلامية صدامية مع العقيدة والفكر الإسلامي والهوية التراثية العربية، ولا يرجع الحكم عليها ولا عملية تقويمها للهوى والتعصب، وتحليل النصوص بالأمزجة، وكأن حكم المعارضين وحي من السماء، وإنما كانت دعوات سلامة موسى المنحرفة ضد التراث والهوية والدين واضحة وضوح الشمس لا تحتاج إلى تعليل أو تحليل أو شرح أو تبرير.

وأنا يسوؤني في مثل هذه المقالات، أنها ليست منصفة ولا تراعي جناب الحق، فرجل اختلفت دعواته بين السيء والجيد، بين الشر والخير، بين السوي والمعوج، لا يجب أبدا أن نسير على خط واحد في تقويم مسيرته، وكأنه كان صواب كله، بل يقتضينا العدل والإنصاف أن نظهر مساوئه ومعايبه بقدر ما ذكرنا محاسنه وإيجابياته ودوره الكبير في مسيرة الحراك الثقافي والاجتماعي في مصر.. ولن أكون من المتعصبين الذين ينكرون جهد الرجل ولكني من المنصفين الذين إذا عمدوا إلى الحديث عنه في مكرمة، ذكرت ما كان من مذمة.

هب أن رجلا لا ثقافة لديه ولم يكن ضليعًا في الفكر وقرأ ما كتب الدكتور تحت هذا العنون البراق، وهذه المقدمة التي توحي

سطورها بوضوح، أن سلامة موسى رجل مظلوم ومفترى عليه في كثير من دعواته.. ماذا يكون حاله؟ لا شك أنه سيعتقد أنه من عظماء المفكرين ويؤمن بكل ما قال.!

والحق أن الرجل أتى في مسيرته الفكرية بمخاز يندى لها جبين الثقافة والفكر والإصلاح والأدب.

كتبت قديما عن سلامة موسى مقالا تحت عنوان (علمانيون ينصفون الإسلام) ذكرت فيه أن سلامة موسى قام لينادي بمساواة المرأة مع الرجل في الميراث، وظن الرجل أن النساء من دعاة النهضة والتنوير، سوف يقفن خلفه، ويصفقن له ويدعمنه بحماسهن، ويرددن دعاويه التي تعترض على قسمة الله.

وأحب الرجل أن يبدأ بزعيمة النساء في ذلك الوقت، فكتب خطابًا إلى هدى هانم شعراوي، يستحثها أنا تنادي بما طالب به من هذه المساواة، وكان الظن أن تقف المرأة معه، وتنادي بشذوذه الذي يعتقد أن يصب في دعوى تحرير المرأة، وأنها ستنادي به مُجددًا ومصلحًا ومنقذًا للمرأة ليتساوى في الزعامة والصدارة بقاسم أمين، لكن حدثت المفاجأة المذهلة والذي سجلتها هدى شعراوي في مذكراتها، حينما ردت عليه بأنها، ليست موافقة على هذه المساواة التي ينادي بها، أمام ما قسمته الشريعة للمرأة، وأن النهضة النسوية في هذه البلاد، لا يجب أن تتشبه

بأوروبا، فلكل بلد شريعته وتقاليده، وليس ما يصلح في بلد يصلح للبلد الآخر، كما أننا لم نلحظ تذمرًا للمرأة وشكوى على عدم مساواتها بالرجل في الميراث، لأن قناعتها بما قسم لها من نصيب، ناشئ من أن الشريعة عوضتها مقابل ذلك، بتكليف الزوج بالإنفاق عليها وعلى أولادهما، كما منحتها حق التصرف في أموالها.

ثم فندت شبهة أخرى مما طرحه فقالت: أما القول بأن عدم المساواة في الميراث، من دواعي إحجام المرأة بعض الشباب عن الزواج في الشرق، فغير وجيه، لأننا نشاهد في أوروبا، انتشار نفس الداء في عصرنا الحالي، أشد خطورة منه في الشرق، رغم أن المرأة الأوروبية ترث بقدر ما يرث الرجل، فضلا عن أنها ملزمة بدفع المهر، ومكلفة بالتخلي عن إدارة أموالها لزوجها.

وقالت: لو سلمنا بنظرية الأستاذ سلامة موسى وجاريناه في طلب تشريع جديد، فهل لا يخشى أن يؤدي ذلك إلى إسقاط الواجبات الملقاة على عاتق الزوج نحو زوجته وأولاده بالاشتراك في الصرف، وفي ذلك ما فيه من حرمان يعود بالشقاء والبؤس على الزوجات الفقيرات، اللاتي لم ينلن ميراثًا من ذويهن، وهذه الطبقة تشمل أغلبية الزوجات، ولا يخفى ما هن عليه من جهل وأمية."

وأنا لا يمكن أبدا أن أتجاوز عن دعوة رجل يصادم الدين والقيم واللغة ووحي السماء، وأعدد على الناس منجزاته ومباهره، دون ذكر ظلامياته ومعاييبه.

وانظر هنا لمن يعيبهم سعادة الدكتور في حكمهم على من جعله بطل من أبطال التنوير، انظر لأعلام الأدب الفكر ماذا قالوا فيه: يقول إمام العربية الأكبر مصطفى صادق الرافعي:

" رأيي في سلامة موسى معروف. لم أغيره يومًا. فإن هذا الرجل كالشجرة التي تنبت مرًا، لا تحلو ولو زرعت في تراب من السكر، ما زال يتعرض لي منذ خمس عشرة سنة، كأنه يلقي عليَّ وحدي أنا تبعة حماية اللغة العربية وإظهار محاسنها وبيانها، فهو عدوها وعدو دينها وقرآنها ونبيها، كما هو عدو الفضيلة أين وجدت في إسلام أو نصرانية.

دعا هذا المخذول إلى استعمال العامية وهدم العربية، فأخزاه الله على يدي، وأريته أنه لا في عيرها ولا نفيرها. وأنه في الأدب ساقط لا قيمة له.

وفي اللغة دعي لا موضع له، وفي الرأي حقير لا شأن له، فلما ضرب وجهه عن هذه الناحية وافتضح كيده دار على عقبيه واندس إلى غرضه الدنيء من ناحية أخرى، فقام يدعو إلى (الأدب المكشوف) فأخزاه الله مرة أخرى ولم يزد بعمله على أن انكشف هو، فلما خاب في الناحيتين، اتجه إلى الشارع الثالث فانتحل الغيرة على النساء والإشفاق عليهن، وقام يدعو المسلمين إلى إبطال حكم من أحكام دينهم وإسقاط نص من نصوص قرآنهم ظنًا منه أنهم إذا تجرأوا على واحدة هانت الثانية، وانفتح

الباب المغلق الذي حاول هذا الأحمق فتحه طول عمره من نبذ القرآن وترك الإسلام وهجر العربية كأن إبليس لعنه الله قد كتب على نفسه (كمبيالة) تحت إذن وأمر (سلامة موسى) إذا محيت العربية أو غير المسلمون دينهم أو أبطلوا قرآنهم، فكانت البدعة الثالثة أن يدعو المسلمين جهرة إلى مساواة الرجل بالمرأة في الميراث، فأخزاه الله.

ثم قام هذا المفتون يدعو إلى الفرعونية؛ ليقطع المسلمين عن تاريخهم، وظن أنه في هذه الناحية ينسيهم لغتهم وقرآنهم وآدابهم، ويشغلهم عنها بالمصرولوجيا، الوطنولوجيا، ثم أتم الله فضحه بما نشره أصحاب دار الهلال"

ولم يكن الرافعي وحده في موضع المتهم المهاجم، بل قام معه المازني الأديب فقال ما يعرض الحق والحقيقة بكلام خلدته الأسفار كشهادة معتبرة من أديب سامق يقول: تحت عنوان:

"سلامة موسى ليس بشيء إن لم يكن دجالاً!!

بضاعته بضاعة الحواة المشعوذين وله حركاتهم وإشاراتهم وأساليبهم.

يزعم نفسه أديبًا، وتعالى الأدب عن هذا الدجل، ويدعي العلم، وجل العلم أن يكون هذا دعاؤه، ويحاكي الملاحدة ليقول عنه المغفلون

أنه واسع الذهن، وليتسنى له أن يغمز الإسلام ويبسط لسانه في العرب، والحقيقة أنه لا أديب ولا عالم، وإنما هو مشعوذ يقف في السوق، ويصفر ويصفق ويصخب، ويجمع الفارغين حوله بما يحدث من الصياح الفارغ والضجة الكاذبة.

لقد آن لمن تعنيهم كرامة الأدب أن يقتلعوا هذه الطفيليات، وأن يطهروا من حشراتها ونباتها رياضة، وأن يقصوا عن مجاله هؤلاء الواغلين الذين يتخذون أسمى ما في الدنيا وأجل ما في النفس طبولاً لهم، ويتذرعون بالتهجم على الدين -على دين واحد في الحقيقة- وعلى العلم والفلسفة والأدب لنيل ما يستحقون، ويفسدون عقول الناس، ويبلبلون خواطرهم بما يغالطونهم فيه ويخادعونهم".

ورحم الله العقاد حينما قال عنه: " الرجل الذي يكتب ليحقد، ويحقد ليكتب" وكان هذا التعريض العقادي مما كان يتألم منه موسى لآخر يوم في حياته، كلما ذكره أو ذُكر به.

إن ما أتى به الدكتور من حديث وكلام جيد محمود قصده، لكنه متجرد من الإنصاف الحقيقي، وعرض الصورة مكتملة الأركان، حتى نعرف بدقة وبصدق، من هو ذلك الذي جعله بطل التنوير العظيم.

والحديث عن هذا الرجل ومسالبه ومخازيه الفكرية يطول ويطول، ولكني هنا أشرت إلى بعض الإشارات الطفيفة في مسيرته التي تظهر حقيقته.

ومع هذا نعود لنتضامن مع الدكتور في دوره التثقيفي الذي لا ننكره عليه، لكن يا معالي الدكتور ما هكذا تورد الإبل.

كان يمكن للكاتب أن يعرض بهذا المنهج المتوازن مع أي أحد مهما كانت جنايته، لكن أن يطبقه على سلامة موسى بالتحديد.. فهذا مما لا أقتنع به ولا أقبل به بوجوده.

محنة مصر

العلمانيون واليساريون والملاحدة يتاح لهم من الظهور الإعلامي والاحتفاء الجماهيري، مالا يتاح لغيرهم من ذوي الهوية الدينية، وأصحاب الفكر الإسلامي القيم الأصيل.

هناك حفاوة زائدة، واهتمام ملموس بالمنحرفين فكريًا عن مسار الهوية الإسلامية، التي هي عنوان مصر والتعبير الصادق عن طبيعة شعبها المتدين، إذ يتاح لهم من التلميع الإعلامي الكبير ما لا يستحقونه، ومن العجب أنك لو أسبغت حقيقة هؤلاء، لوقفت على جهل مريع، وضلال عجيب، يقبع ويتوارى خلف جماجمهم الصدئة.

لكن الإعلام يصر على تلميعهم والترويج لهم، حتى يتيح لأفكارهم المنحطة الهابطة، أن تدخل عقول الناس، وتفسد رشدهم.. تحدث هذه المأساة في مصر، منذ زمن بعيد ولا أخص هذا الزمن الذي نحن فيه وحده.

لقد اعتاد الإعلام ومعه الدراما، أن تتجاهل شخصية الرافعي إمام البيان، الذي كان يقلب دنيا الثقافة، ويثير معارك حامية الوطيس،

لأن تهمته في اعتزازه بهويته الدينية، ولابد أن يهال عليه وعلى تراثه التراب السميك، أو يدفن في قبور النسيان.

الرافعي الذي لو كان في أمة من الأمم، لأقاموا له التماثيل، وسموا باسمه الجامعات والقاعات، ونسبوا إليه الشوارع والأندية، لكننا في مصر وفي إعلام العلمانيين واليساريين، نعظم نصر أبو زيد، وننادي بعبقرية فرج فودة، ونزعم أن يوسف زيدان فيلسوفًا كبيرًا، وهم لا قيمة لهم إلا في دنيا الخرف والهرف، وساحة التحريف والتزييف.

إمام كالعقاد، لم يستطيعوا أن يتجاهلوه، لعقله المرموق، لكنهم كانوا في محنة محيرة، إذ كيف يذكرونه وله هذا التراث الديني الخالد في نصرة الإسلام، علينا إذن أن نذكره أديبا وتنويريا، ونتعامى عن إسلاميته، حتى يُظلم في تاريخه هذا الجانب.

أما عظيمهم وإمامهم ونابغة زمانهم، فهو طه حسين، الذي يصورون للعالم كله، أنه لا مثيل له أدبا وفكرا، وقد قرأت مرة لكاتب أبله، سطر حروفا مجنونة، جعل فيها من طه حسين مجددًا للإسلام في القرن العشرين.. فأي تجديد يزعم هذا الرجل ويراه؟!

وعلى ذات الخطى تواصل مصر إهمالها لنوابغها من المفكرين الحقيقين، من أصحاب العيار الثقيل في دنيا الفكر والعلم والقلم.

انظر مثلا لهذه القامة العلمية الضخمة المعاصرة المفكر والناقد الكبير دكتور (إبراهيم عوض) الذي لم يأخذ حقه، ولم ينل مكانته، ولم يجد من يقدر علمه وفكره ورؤاه، من مؤسسات الدولة ومراكزها الثقافية، وفي الوقت الذي يحرم فيه من الظهور الإعلامي وتقدير الدولة، نرى الغثاء يعلو في سماء الإعلام، ونبصر عقولا تهذي بالخرافة والزيف والتهليس، وتحتفي الصحف ومنصات الإعلام بالكذبة الجهلة الذين ليسوا إلا كالعهن المنفوش.

الرجل الكبير والمفكر الضخم، يعيش في بلد تتنكر لمقامه، وهو الباحث الجبار الذي تعددت مؤلفاته، وأثبت بصماته القوية في عالم الفكر والثقافة والنقد والتحليل والتحقيق.. تضيق به بلده وإعلام بلده، بينما ترحب وتستقبل من لا يقاسون به عمقا وفكرا وإنجازا وأثرا.

ولكن للأسف هذه هي مصر دوما، وهذه هي علتها المزمنة.

ولعل السبب في أن مصر تتعامى عنه، ويعزله حماة العلمانية عن الظهور لذات السبب، هو هواه الديني وحفظه للأصالة العربية، ودفاعه عن تراثها المجيد، وهو الهوى الذي يناصبه العلمانيون العداء، ولا يريدون لهذا اللون وأصحابه، أن يكون لهم ذكر وتقدير وتواجد، أسوة بما فعلوه مع الرافعي، وما يخفونه من سيرة العقاد.

الفيس بوك ومواقع التوصل الاجتماعي تضج بشباب الساحة الأدبية، الذين يعظمون الأقزام، ويكبرون الصغار، وينفشون أقلاما لا

ترتقي حتى أن تكون في مصاف أصغر تلاميذ هذا المفكر الكبير، ومن المضحك المفزع حينما تراهم ينعتونهم بالفلاسفة، فأين هؤلاء من رجل كهذا، وهم منه في الحقيقة، كحصاة ضئيلة تافهة، أمام جبل شاهق مهول تدوي هامته في السماء.

يكتب أحدهم رواية هابطة وربما جنسية، فيسير حديث المدينة والمدائن التي تجاورها، ويُحدث زلزالا في حياة الشباب التائه، ويخرج عربيد يشكك في القرآن والثوابت فتصفق له الدنيا، ويحتفي به الجميع، بينما تهمل هذه القامة الفكرية وتحرم من التقدير اللائق بها، لأنه دينة أصيلة محافظة.

ويا لها من جريمة نكراء، لا تليق بساحة الثقافة المصرية.

قدر لي أن أقرأ للرجل وأنا المتخصص الأزهري في علوم الدين، ولي نظر في القراءة الأدبية والتراثية، فرأيت رجلا غير عادي، بل رأيت عملاقا يخوض غمار ميادين لا يقوى عليها إلا مارد جبار، يصول ويجول، ويكشف ويعري، وينقد ويحلل، ويثبت وينفي، ويُخطِّئ ويصوب، ويحقق ويدقق، بعقل ثاقب، وبصر نافذ.

الرجل قيمة كبيرة وعقلية فريدة، وإهدار قيمته وصمة عار في جبين كل مثقف حر، بل مذمة في مسيرة مصر الثقافية، وإذا كان هناك من يردد أسماء البغاث ويشجي بها الآذان، ولا يأتي على ذكره هذه القامة

الفريدة، فهو خلل في ميزان الحكم والتقويم، ودليل واضح على الثقافة الهابطة المتردية، التي يغط فيها هذا الجيل.

حصل الدكتور على درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث عام ١٩٧٤م، ثم سافر في بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٧٦م لمواصلة دراساته العليا في جامعة أوكسفورد، وحصل على درجة الدكتوراه في النقد الأدبي، وله من الكتب أكثر من مائة كتاب ما بين ورقية وضوئية على "النت".

والمطالع لقائمة كتب الدكتور إبراهيم عوض، يرى بوضوح اتساع الرقعة التي يتناولها بالبحث والدراسة من الأدب العربي والنقد الأدبي والفكر الإسلامي، وله أكثر من كتاب تناول فيه بالدراسة النقدية التحليلية، عددا من الترجمات القرآنية التي قام بها فرنسيون وإنجليز، وأغلبهم من المستشرقين، مبينا عيوب تلك الترجمات، ومفندا المزاعم التي ادعاها أصحابها زيفا عن القرآن وفق منهج علمي صارم محترم، وله كثيرا من الدراسات النقدية في مجال القصة والمسرح ومناهج النقد الأدبي وفلسفة الفن، كما كتب عن بعض الشعراء القدماء عددا من الدراسات، بالإضافة إلى تحليله لعشرات القصائد من عصور الأدب العربي المختلفة في عدة كتب أخرى.

يتميز مفكرنا الكبير بالتواضع الشديد، وقد حدثني بعض تلاميذه بقوله: "إن الدكتور إبراهيم عالم متواضع لدرجة لا توصف..

هل رأيت من قبل عالما ومفكرًا يقول لتلميذه: وجهني؟! أو يقول لتلميذه: أنت تناطحني اليوم؟!وهل رأيت عالما ومفكرا يمنح طلابه بالهدايا ويحفزهم بالجوائز ليقرؤوا؟ إنك لا تتخيل كيف يطبق هذا الرجل معاني الصوفية الحقيقية في عبادته وبأي صورة، إنه قمة في التقوى الحقيقة وليست المزيفة"

وأمام ما عرضنا من هذه الصورة لهذا الرجل الكبير، والتي أطلقنا عليها محنة مصر، ربما يكون عزاؤنا الوحيد في مواقع التوصل الاجتماعي والفضاء الالكتروني، التي عرفتنا بالمفكر الكبير، وعرضت علينا علمه السيال، وأوقفتنا على مقامه الرفيع.

فرق بين المثقف والمتخصص

أهدأ وابحث حتى لا تخطئ، هذا هو المحظور الذي كدت أقع فيه اليوم، لولا بعض الإشارات التي أوعزت إلى بالتريث، حتى أستبين وأستيقن.

كنت أقرأ عن حياة الإمام السيوطي رحمه الله، وراعني أنه تعرض للاضطهاد من قبل السلطان المملوكي طومان باي، الذي أراد أن يبطش به، لكنه غاب وتخفى عن عيونه حتى تم عزله بعد ثلاثة أشهر من توليته.

وأنا أعلن دوما أنني من المبغضين للسلطان المملوكي طومان باي، وأؤمن أنه من سلاطين الغدر والخيانة، في الوقت الذي تحاول فيه قوى العلمانية الضالة، أن تجعل منه البطل المفدى، والقائد العظيم ورمز مصر والمصريين، وما هو من مصر في شيء، ولا يمثل شعبها في شي.

ولكن القوم يفعلون ذلك، بغضا في الخلافة العثمانية، ومحاولة تشويهها بأي صورة وطريقة، ووضع كل أعدائها وخصومها، موضع الأبطال العظماء، بل أوشك هؤلاء أن يجعلوا من الشيطان ملاكا، في سبيل تحقيق غاية كرههم للعثمانيين، وهي الغاية التي تعاموا فيها عن خسة هذا الحاكم وغدره.

لقد فرحت لهذه الخصومة بين السيوطي وطومان باي، وهممت أن أكتب مقالة دقيقة أبرز فيها كيف لهذا الشقي أن يعادي إمامًا صاحب قدر ومكانة كالسيوطي، حتى أضيف هذه النقيصة إليه في جملة ما أسعى إليه من كشف حقيقته وتعريته.

وفي معرض توغلي في البحث، رأيت الكاتب يحكي أنه بعد عزل صومان باي عام ٩٠٩ جاء من بعده السلطان الغوري، عجبت من ذلك لعلمي أن طومان باي المقصود، جاء بعد الغوري لا قبله، وأنه لم يعزل وإنما قتل شنقا وصلبه السلطان سليم الأول.. كما أن أيامه المعدودة، لم يكن ليشغلها، باضهاد عالم، والجري في خصومته، فقد كانت كلها ذات هم مصروف لقتال من يهددون عرش الدولة المملوكية.. ومع البحث تبين أن هناك طومان آخر قبل السلطان الغوري، وهو غير طومان الذي جاء بعده.

كان يمكن لو سارعت بتسجيل واقعة العداء بين السيوطي وطومان باي على نية أنه طومان باي المعروف، لكان الخطأ فادحًا، وربما كان مقالا وتهمة تدور في الظلم الذي لا أقبله حتى ولو كان لشخص أبغضه.

ولا أخفيكم أنه تحتاحني الآن مشاعر طفيفة بالحزن والضيق، فقد تمنيت أن يكون طومان باي المذكور في عداء السيوطي، هو الذي يؤلهه العلمانيون، حتى أكسر صنمهم الموهوم، وأصنع حوله هالة ضخمة مدوية من الفضح والتجريس، لكن هوى المراد وزال الغرض.

وفي معرض الرثاء للمقال الذي طار وتمنيته، يجب الاعتراف هنا بدقيقة علمية، وهي الفرق الكبير بين المثقف والمتخصص، فيمكن لي وأنا مثقف مطلع، أن أخطئ في بعض المعالم والأصول التي لا يبصرها ولا يقف على دقائقها إلا المتخصص، لأنه صاحب رؤية وبصر وعلم وفن وخبرة.

وأقول: مهما كنت متعمقا في علم من العلوم، تبقى حاجتك دائما إلى المتخصصين فيه حتى يفتحوا لك كثيرا من المغالق، التي تقف عليها حتى لا تتحول إلى أغاليط.

ولعل هذه آفة العلمانيين اليوم الذين لا يعترفون بالتخصص في علوم الدين، ويصيرون على جعله كلأ مباحا لكل ناعق نابح منهم، دون الرجوع لمتخصص ينير لهم دروب العلم الذي أظلمت بصائرهم أمام دهاليزه.

غير رأيك لا قِيمَك

أتدري ما الذي ينقص كثير من الكتاب والمفكرين العلمانيين واليساريين اليوم؟ إنهم لا ينقصهم اعتدال الفكر والفهم بقدر ما ينقصهم الصدق والإنصاف والخلق والأدب والاحترام.

إن هذه الطبقة التي نشاهدها اليوم من المنفلتين فكريا، مشكلتهم الكبرى ليست في هذا الانفلات، وإنما مشكلة أكثرهم أنهم يخاصمون معاني الخلق والفضيلة، وهم لا يحبون إقامة الحوار مع خصومهم، أكثر من حبهم لتركيعهم تحت حد المقاصل، أو نصبهم على أعواد المشانق، لقد أعلنوا فشلهم الكبير في قبول الآخر، واتخذوا من القمع والتحريض منهجًا في معاملة الخصوم، هكذا رأيناهم مؤخرًا وشهد العالم كله عليهم.

من قديم وأنا أقول: لا بأس أن يتغير الرأي والفكر والفهم، ولكن الذي لا قبول فيه عندي، هو تغيير القيم والأخلاق والتفريط في المبادئ.

إننا نعظم الأخلاق، لإيماننا أن الأخلاق منبع كل خير، والطريق لكل فضل، ومن يفقد الأخلاق، تسفل قيمته مهما امتلأت رأسه بالعلم والفكر.

تخيل اليوم لو أنك تحاور صنديدا من صناديد العلمانية، وهو لا يكذب ولا يظلم ولا يفتري ولا يسخط، ولديه رصيد وافر من الأدب والذوق والخلق والفضيلة، كيف يكون إذن حاله؟ وكيف تكون الوقائع معه؟ بل كيف سيكون احترامه للدليل والبرهان إذا ما بدا جليًا أمامه؟

هل يرفض ويجادل ويمكر؟ لن يفعل شيئا من هذا، لأنه منصف وصاحب أخلاق يعظم الفضيلة.

قرأت مؤخرا شيئا عجبا، ولو أنه حدث اليوم لقامت قائمة بعض السلفيين وغيرهم من كثير من المأفونين، الذين يحلوا لهم تكفير الناس وتفسيق المخالفين، وإسقاط كل حق يتمتعون به، لمجرد خلاف في الفكر والرأي.. هل تتخيل أن أعلام السنة رووا الأحاديث التي هي عماد الدين ومناط التكليف عن الشيعة؟

نعم لا تتعجب، لقد ثبتت روايتهم للحديث وأخذهم عن علماء الشيعة، لثبات علمهم وأخلاقهم.. لقد كانت الأخلاق هي الرباط والوثيقة، التي دعت علماء السنة أن يرووا عنهم وهم مطمئنون للصدق والأمانة التي لن تنجر يوما إلى اعتماد كذب أو تورية حق من الحقوق.

يقول القائل:" فقد كان عدي بن ثابت بن قيس عالم الشيعة وقاضيهم، وإمام مسجدهم، وقد وثقه الدارقطني وأحمد بن حنبل والنسائي، وقال أبو حاتم الرازي عنه إنه صادق صدوق، وكذلك كان

منصور بن أبي الأسود الليثي الكوفي الخياط من أئمة الحديث، وروى المحدثون أحاديثه لصدقه وعدالته وهو شيعي أمين، بل كان الإمام أبو الحسن علي بن عاصم الواسطي من طبقة شيوخ الإمام أحمد بن حنبل، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثين ألفًا فلا يبقى في بغداد عالم ذو مكانة إلا شهد مجلسه، وقد جاء في كتاب الكفاية للخطيب البغدادي أن المعتصم الخليفة العباسي كان يختلف إلى مجلس أبي الحسن علي بن عاصم هذا، فسمعه يروي حديثًا عن عمرو بن عبيد، فقال له: أتروي عن عمرو ابن عبيد وهو قدري، قال: نعم أروي لأنه ثقة! وكان عبيد الله بن موسى العبسي من كبار علماء الشيعة وروى عنه الإمام البخاري ما رواه، وكذلك روى عنه أبو حاتم الرازي، وأبو بكر بن شبه وكثير من الفضلاء! وقد وثق يحيى بن معين كثيرًا ممن شاهدهم من أعلام الشيعة وقال عن كل من تحدث عنهم إنه صدوق، فإذا كان أهل السنة يقبلون روايات الخوارج والقدرية لأمانة من قالوها وثقتهم بهم، فهم لروايات علماء الشيعة أسرع، وبهم أوثق"

إن كثيرا من المتدينين اليوم تشعر حينما تتعمق في الثقافة الدينية أن هناك قصور في الفهم قد أصابهم، وأن موجة عتية من العداء وعدم التمييز أصابت العديدين منهم، فهذه الجحافل السلفية التي تهاجم الصوفية اليوم وترفض وجودها، لو أنهم رجعوا لكتب الأئمة الكبار الذين يرددون أقوالهم قبل قول الله سبحانه ورسوله، لوجدوا أنهم قبلوا عدول هذا الطريق، واستشهدوا بأقوال أئمته وأوليائه، بل كان الحديث

عنهم ذكرا معطرا بالرحمات والغفران، في الوقت الذي يكيل لهم هذا الشباب القاصر تهم الشرك والكفران، هكذا فعل ابن تيمية مع أئمة التصوف كالمرسي أبا العباس وحجة الإسلام الغزالي.

وعودًا على بدء وقبل الشطط في الرفض، والتطرف في الاستنتاج، فإنني أقرر حسب دراستي أن التشيع عالم فسيح متسع، وفي فرقه ما يقارب أهل السنة والجماعة ويشابههم في الفقه والمعتقد، وليس الحديث يخص المغالين والمفرطين، أو يدعو للأخذ عنهم.

ما أروع الظلم!!

هي جملة قد ينطقها بعض من يحبون العدل؟

ولكن كيف لعشاق العدل أن يعظموا الظلم ويمدحوه، وهو في أعينهم وعرفهم وأخلاقهم أعدى أعدائهم، ونقيض سلوكهم، ولدد هواهم؟!

أحيانا كثيرة يتسبب الظلم في رقي العدل، ويخدمه ويمكن له بما لم تمكن له كثير من الإجراءات والسياسات والقرارات! ويا لها من معادلة غريبة، ونظرية متناقضة، يدهش معها العقل ويتأمل في روعها المتأمل.!

ومع البصر بأحوال التاريخ والاعتبار ببعض أحداثه وصوره ندرك هذا المعنى الغريب، والطور المدهش العجيب، فنعرف أن الظلم يمكن له أن يكون من أمنع الوسائل التي تخدم العدل وتمكن له.

مما عرف به الخليفة العباسي المنصور أنه كان شديد الشغف بالمال، بارعا كل البراعة في ابتكار الطرق لجمعه والحصول عليه، بل كان بخيلا ممسك اليد، ومما يذكر أنه قرر أن يبني خندقا وسورا حول الكوفة، وقرر أن يجمع نفقته من الأهلين، ورغب ألا يفوته أحد منهم، فأمر أن يمنح كل فرد خمسة دراهم، فتقدموا جميعا لأخذ هذه الدراهم، وبذلك تمكن من حصر عددهم، ثم أمر أن يجبى من كل واحد أربعون درهمًا، وقد سجل الشاعر هذه المظلمة بقوله:

يا لقوم ما لقينا ** من أمير المؤمنينا

قسم الخمسة فينا ** جبانا أربعينا

ولعل المنصور كان يدرك في قرارة نفسه، أن هذا الظلم وهذا البخل وهذه القسوة على الرعية، مما ينفع ولده من بعده وولي عهده المهدي، فقرر أن يجري حيلة ويمكر مكرا يستفيد منه ولده من بعده، يتلعب فيها بعقول الناس ويخدعهم في أموالهم، فكان إذا صادر أحدا على مال، وضع ذلك المال في مكان خاص في بيت المال، وكتب عليه اسم صاحبه، فلما مرض مرض الموت، قال لابنه المهدي: يابني إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه المصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليت أنت فأعده إلى أربابه، ليدعو لك الناس ويحبوك.

وهكذا السياسة فلا يهم أن يلقى الرجل ربه وهو على خير، بقدر ما يهمه أن يمكن للولي الجديد، هكذا موازين الساسة وأقدراهم، لا قيمة

تقدرها لظروف الناس وأحوالهم، وهكذا يتلعب الخليفة بأقوات الرعية وأرزاقهم، ليكونوا محور خدعة يمكن بها للخليفة القادم.

لقد كانت هذه الصورة من صور الظلم الذي يمكن للعدل، ومن صور الظلم المحمود عند الولي الجديد، لأنها تمكن له في قلوب الرعية، وتجعل الألسنة تسير بحمده وشكره والثناء عليه، ومعرفة الفرق الهائل بينه وبين سلفه الظالم البخيل.؟!

ولعل من صور الظلم الرائع الذي نتج عنه خير كثير، وحظيت به أمتنا المصرية بما لم تحظ به أمة في التاريخ، هو الظلم الذي كان يعانيه المصريون من الحكم الروماني قبل دخول الفتح الإسلامي، فإن هذا الظلم هو الذي ساق المصريين أن يعشقوا الإسلام، ويشعروا بالفرق الهائل بين المسلمين العادلين وبين سلفهم المجرمين، كان هذا الظلم سببا أن يذوب المصريون في الإسلام وحياة المسلمين، فتطبعوا بطباعهم، وتكلموا لغتهم، وأحبوا رموزهم، ولم يستطع شعبا من شعوب الأرض تقبل الإسلام ولغته وقيمه وأهله بهذه السرعة كما تقبلها المصريون، ولا يرجع هذا لجمال الإسلام وحده، وإنما لبشاعة الظلم والقهر الروماني، الذي أشعر المصريين بروعة الفارق وجمال هذا القادم الجديد.

انظر للفرق بين المصريين والفرس، لقد جعلوا من أنفسهم في ثأر مع الفتح الإسلامي بعكس المصريين، ثأر قومي أو شعوبي، فاحتفظوا بلغتهم وطبائعهم، ولم يذوبوا في أحضان الإسلام بالصورة الكاملة، كما

فعل أهل مصر، بل نتج عن هذا الثأر مقتل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وظلت فئات كثيرة من الفرس تحيق بالإسلام وخلافته المكر والتلاعب ببيوت الخلافة في عقود طويلة منه، بل حتى التلاعب ببعض علومه ومعالم حضارته.

صور كثيرة في التاريخ تشهد بما يدره الظلم على العدل من كرم وعطاء، أكثر مما يُدره عدل العادلون وإنصافهم، وحقا كما قيل: إن في بعض الشر خير.!

ولعلها تكون الصورة الوحيدة، التي يردد فيها المنتفعون ويهتفون: يحيا الظلم

مدارسنا تحتفي بشيوعي

حينما كتبت سابقا عن دور الإعلام والدراما المصرية في تقبيح وتشويه صورة العلماء والحط من كرامة العمامة الأزهرية، خرج بعض أصدقائي في تعليق يُذكرني بالحادثة الشهيرة التي كادت أن تزلزل القاهرة في عهد عبد الناصر، وهي الحادثة المعروفة التي هبت يومها الجماهير تنتصر للعمامة الأزهرية، لأن الذي كان يرتديها في ذلك الوقت، عالم حر غيور أحبه الناس، ولم تقبل عقولهم أن ينطلي على مثله ما حاول الاعلام دوما تصويره للناس بنمط السخرية والاستهزاء.

قال بعض المعلقين: "ذكرني مقالكم أستاذنا الكريم بما تعرضت له عمامة الشيخ محمد الغزالي من سخرية من قبل صلاح جاهين أثناء مؤتمر القوى الوطنية والشعبية في الستينيات من القرن الماضي بعد أن طرح الإمام الغزالي عدة نقاط لم تعجب جاهين؛ فرسم الغزالي وقد ركب حمارا بالعكس وعمامته مدللة على الأرض في مجموعة من الكاريكاتيرات الساخرة تحت عنوان: تأملات كاريكاتيرية فى المسألة الغزالية.

وقد غضب الشيخ الغزالي من هذه الحملة، ورد على جاهين ردا قويا قال فيه عبارته الشهيرة: يا جاهين، هذه العمامة التي تسخر منها تحتها عقل مفكر!

غضبت الجماهير وبعد خطبة الجمعة حملت الشيخ على الأعناق، وحطمت واجهة جريدة الأهرام، وكاد أن يحدث ما لا يحمد عقباه لولا تدخل القيادة السياسية والرئيس عبد الناصر شخصيا، واضطرت الجريدة لكتابة اعتذار للشيخ الغزالي على صدر الصفحة الرئيسية في اليوم التالي."

انتهى الموقف وانتهى ما ذكرني به الصديق المحترم، ولكن ما الذي دعاني لإعادة هذا الحديث مرة أخرى، وما جعلني أعيد كلامه الذي جاء وكأنه على موعد مع المجهول، فبعد ساعات من كتابة هذا الكلام، خرجت علينا الأنباء بهذا الخبر المقرف.

"تشارك المدارس على مستوى الجمهورية في احتفاء وزارة الثقافة بـ"صلاح جاهين"، المقرر له اليوم الأربعاء، في إطار التعاون بين وزارتي الثقافة والتربية والتعليم والتعليم الفني، لبناء الوعي وغرس الهوية المصرية.. يأتي ذلك بتخصيص فقرة بالإذاعة المدرسية بجميع المدارس للحديث عن الراحل صلاح جاهين، كأحد رموز الفكر والإبداع المصري."

وهنا لك أن تتخيل أن يكون هذا الشيوعي المنحرف رمزا من الرموز الفكرية والوطنية التي يتعلم ويتربى أولادنا في المدارس على أنهم عباقرة مصر ونوابغها المتفردين، لو كانت وزارة الثقافة قد احتفت مع

التربية والتعليم بالعقاد أو طه حسين، لقلنا: ما أعظم هذا وأجدر أن يتعلمه أبناؤنا ويقدروه، أما أن يأتي هذا التعميم والاحتفاء برجل عربيد متغرب، فما قيمته وما جلاله وتميزه في مصر؟ أهي بضعة أشعار عامية لامست قلوب المصريين؟

إنني أعرف أن رمزا كالشيخ الشعراوي كان أقرب إلى وجدان الجماهير بملايين الخطوات عن مثل هذا البهلول.

بل أعقد مقارنة خاطفة بين صلاح جاهين وبين الشيخ الغزالي مثلا لتدرك أيها كان أكثر خدمة للفكر والعلم وبعث الارتقاء بالوعي والمعرفة، وتأصيل معالم القومية الوطنية.. لا يمكن التسوية بين من كتب قذائف الحق، والاسلام في وجه الزحف الأحمر، ودفاع عن العقيدة والشريعة، وخلق المسلم، وبين من كتب خالى بالك من زوزو زوزو انوزو كمانوزو، والشوكولاته ساحت راحت مطرح ماراحت.

ولكننا نعرف أن اختيار هذه الشخصية، قد تم بعناية وقصد وحاجة في نفس يعقوب، فهناك في وزارة الثقافة من يريد لأبنائنا أن يعظموا المنحرفين المنفلتين المتمردين على تعاليم الإسلام وقيمه السامية.. ولوزارة الثقافة أن تحتفي بمن تشاء، لكن إشراك وزارة التربية والتعليم في الأمر له هدفه وغايته.

عار كبير في مصر أن يُقدَم شيوعي أمام الأجيال على أنه نموذج القدوة والإبداع والوطنية، وهناك في هذا الميدان عباقرة كثر لا يساوي صاحبنا بعرة علقت بنعل أحدهم.

نود أن نرى من المسؤولين من يحاسب هؤلاء ويسائلهم عن هذه الأفعال الغريبة، ويجد لنا إجابات شافية، ويتخذ قرارات نجيبة تمحق هذا الهراء، كما يجول بخاطري، لماذا لا يعقد الأزهر بروتوكولا مع وزارة التربية والتعليم، يقدم فيه لأبنائنا نماذج الرقي من العلماء والمفكرين الأوفياء لهويتهم ووطنهم.؟!

أهلها أهل شر . !

حينما كانت العلاقة سيئة بين مصر وتركيا، وكان هناك اختلاف سياسي محتدم معلن ملموس بين الدولتين.

خرج الإعلام ليسهم بدوره في هذا العراك وإذكاء نيران العداء، وسارعت الدراما كأحد أذرع الاعلام المهمة والغالبة، لتدلي بدلوها في هذا الخلاف، وكان مسلسل (ممالك النار) الذي كان عبارة عن ١٥ حلقة يتيمة، وهو العدد المضحك حينما ننظر الى مقابله من المسلسلات التركية التي يبلغ الجزء الواحد من الحلقات فيه أكثر من ١٥٠ حلقه، فمن المفروض على مسلسل يشوه الصورة التركية، أو يهاجم تاريخ دولة كتركيا، ويحاول ان يشوه صورة الخلافة العثمانية، كان الأولى به ان تكون حلقاته على أقل تقدير في ٥٠ حلقة لكن كما يقال: تمخض الجبل فولد فارا.

لكني لاحظت وقتها أن هناك دعاية عظيمه جدا جدا في ادعاء الاعجاز المذهل لهذا المسلسل ونجاحه الساحق، حتى كاد بعضهم أن يقول: إن الدراما المصرية لم تخرج لا في السابق ولا في اللاحق مثل هذا المسلسل روعة وإجادة.

أيضا كان لبطل المسلسل وهو الممثل خالد النبوي الذي لا أطيقه على المستوى الشخصي ويمجه ذوقي الفني، ولا أقتنع به ولا اعترف به، حتى أنه أفسد علي صورة الامام الشافعي التي كانت في خيالي عنه، في مسلسله الذي جسد فيه شخصيته، لكنني كنت أندهش كثيرا حينما أرى هذه الأبواق التي تجعل منه وكأنه يفوق أعظم ممثلي العالم وبعضهم جعل قدراته في التمثيل تفوق قدرات انتوني كوين مثلا او توم كروز.

وكانت هناك دعايات ثالثة كبيرة جدا جدا تمدح مدحا مفرطا في تاريخ ابن إياس الحنفي ذلك التاريخ الذي سجل احداث سقوط دولة المماليك واستيلاء العثمانيين على مصر وطبعا من المعروف ان ابن اياس كان يصف العثمانيين بأوصاف بشعة وأوصاف غير إنسانيه في اعمالهم في الفتح وقسوتهم في التعامل مع اهل مصر، والوحشية الباهظة التي عاملوا بها المواطن المصري.

حاول المسلسل ان يظهر ان (طومان باي) بطل قومي وأنه كصلاح الدين والمظفر قطز، ولكن الحقيقة كانت خلاف ذلك، فقد كان مجرد سلطان غادر خائن شأنه شأن كافة المماليك ومن يتتبع تاريخه يعلم ذلك ويدركه.

كذلك كان ابن إياس نفسه مؤلف الكتاب الذي تم الاعتماد عليه، إذ يعد قوله في العثمانيين مجروحا، لان ابن اياس أمير مملوكي، وكان

والده وإخوته من ضباط المماليك وأمراهم، اما هو فاختار العلم وكتابه التاريخ، فمعنى انه يذم العثمانيين ويبدي نفوره منهم ويصفهم بأبشع الوسائم، فليس الامر أنه مجرد مؤرخ او مؤرخ أو إنسان عاصر الاحداث فقط، ولكنه قبل هذا انسان متعصب لبني قومه وهم المماليك، ومن ثم كان الاحتياج الكبير لمثل هذا المؤلف ومثل هذا الهجوم على تاريخ الاتراك وتاريخ العثمانيين، كانت ملحة في ذلك الوقت لتبني وجهه نظر صاحب بدائع الزهور، فظهر دور السلطان العثماني سليم الاول وتم تمثيله وكانه شيطان في صوره انسان، حتى المكياج ايضا حاول ان يدعم هذا التصور، فبدا وكانه شبح مرعب مخيف، ذو شوارب طويله وحواجب ثقيلة مرتفعة لأعلى كأنه الشيطان، ويبدو على وجه الغضب والشر، ولديه شذوذ في التعامل الانساني، حتى يصوروا للمشاهد او يعطوا الايحاء المطلوب بكُره هذه الشخصية، أذكر أن الممثل خالد النبوي وقتها جاء في أحد برامج وحاول أن يظهر بصورة المثقف وقال مادحا بإفراط تاريخ ابن ناس وذكر: أنا لم اكن اعلم تاريخ مصر، هذا الرجل وهو ابن ياس حكى كل شيء بالتفصيل وذكر أوصافا دقيقه جدا جدا جدا، تجعلنا من الواجب ان نقتنيه وان نقراه وان نسعد به وان نعرف كثيرا من الاشياء عن تاريخنا.

وإذا كان هذا المدح المفرط لابن اياس والاعتماد الكبير على هذا التاريخ في وصف سقوط الدولة المملوكية ودخول العثمانيين لمصر وتعظيم اسم ابن اياس بهذا الشكل، ألم يكلف النبوي وغيره ممكن

يطنطنون بالكتاب أن يقرؤوا ماذا قال في مصر وذكر من طبائع أهلها ورأيه فيهم؟

خاصه وانهم حاولوا ان يجعلوا من (طومان باي) بطلا مصريا مع انه لم يكن مصريا ولا علاقة له بمصر وأصوله ليست من مصر، وانما هو من دولة المماليك وهي الدولة التي اتسمت عبر تاريخها بالظلم والقسوة والجبروت والقهر والغلبة والعدوان على المصريين.. لكن ماذا كان رأي ابن اياس في المصريين؟

ابن إياس الذي قالوا بأنه عاصر كل شيء ووصف بالحقيقة كل شيء، كيف كان قوله في المصريين؟

وهل يمكن أن نمدحه ونعتز بكتابه بعد رأيه في أجدادنا، أم أننا سنذمه وننزله من المكانة العالية التي روج لها أصحاب المصلحة؟

سؤال نحتاج الإجابة عليه بعد أن نعرف ماذا ذكر عن المصريين.؟

يقول ابن إياس في باب ذكر أخلاق أهل مصر وطبائعهم وامزجتهم وما أشبه ذلك "وعندهم الجبن والقنوط والشح وقلة الصبر على الشدائد، وسرعة الخوف، من السلطان، وعندهم قلة الغيرة على عيالهم، وعندهم التحاسد، في بعض وكثرة الكذب، وذم الناس، ومنهم

من خصه الله بالعقل وحسن الخلق، حتى كلاب مصر أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان، وقيل إن الأُسد اذا دخلت مصر زلت، وقل أزاها عما كانت في القفار وذكر قول ابي الصلت: أهل مصر الغالب عليهم اتباع الشهوات، والانهماك في اللذات، والاشتغال بالترهات، والتصديق بالمحالات، في اخلاقهم رقة، وعندهم بشاشة وملق، وعندهم مكر وخداع، ولهم كيد وحيل وذكر كذلك من قول بعضهم: نساؤها شر نساء الأرض، وعندهم خبث ودهاء ومكر ورياء، وهي بلد مكسب لا مسكن أهلها أهل شر، فكن منهم على حذر"

آهٍ من التعاطف

عجيب أمر هذا التعاطف، حين يمكن له أن يحول الحق إلى باطل، والباطل إلى حق، ويمكن له أن يقلب الهزيمة إلى نصر، والنصر إلى هزيمة، ويستطيع بمهارة وجدارة، أن يحول النجاح إلى سقوط والسقوط إلى نجاح.. وهو معمول به بين الأمم التي ليست على درجة من لين القلب، بقدر ماهي على مرتبة وافية من قلة الوعي، وفقدان الإدراك.. فليس معنى تعاطفها مع الخطأ والشين إلا من هذا القبيل الأعوج.. ولقد علّم الله تعالى المسلمين معنى التوازن النفسي في مثل هذه المنعطفات، أتذكر حينما قال تعالى: "ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله" نعم.. فالرأفة مرفوضة في مواطن، والتعاطف يعد هرجا في كثير من المشاهد.

وعجبا رأيت.. حين يظل الكاتب يكتب ويجتهد وهو مهمول مجهول، لا يلتفت إليه أحد، ولا يلقي له الهواة بالا، حتى إذا حدثت له مصيبة أو موت أو ظلم أو انتحار أو سجن.. تنبهت له الدنيا، وسار بذكره الركبان.. وتحاكى بأمره القاصي والداني، ويجد ممن كانوا حوله بالأمس متغاضين عنه، تعاطفا غير مسبوق، وكأنهم يعزون أنفسهم في عبقرية لم يقدروها حق قدرها، ولكنها ليست عبقرية، وإنما هو تعاطف أعمى، يحب دوما أن يمارس هوايته مع أي ضحية.

نصيحة لبعض الكتاب الذين يعانون الإهمال.. ابحثوا عن المحن والأزمات كي يتنبه لكم العالم.

ذكرني بهذه الخاطرة ما قرأته لكاتب ينعي صديقه الأديب الذي توفى من قريب، وصدّر بعض أعماله التي كتب عنها ما يكتب المحكمين عن نجيب محفوظ والحكيم وطه حسين، وأخذ يعدد سمات الراحل وأسلوبه وطريقته ولغته العالية وتراكيبه النافذة، وبنية نصوصه، وعمق تصويره، وأشياء أخرى مذهلة، ما كان له أبدا أن يكتبها في حياة صاحبه، ولكنه الموت والمحنة التي جرت القلوب إليه جرًا، وأشعرت كل من علم بحاله، أن يبحث عن مواطن الجمال فيه، ويزكيه ويرثيه، كما لو كان يرثي زعيمًا وطنيًا، أو مصلحًا مناضلا.

لقد كان سيد قطب أديبًا ككل الأدباء، بل كان مميزا في فهمه وإبداعه، لكن كثيرين لم يكونوا يرون ذلك او يشعرون به، حتى تم إعدامه، فإذا بجماهير العالم الإسلامي تتحرك متعاطفة معه، تطبع كتبه وتحيي أدبه، وتجعل منه أيقونة الشهادة.. وهي المراتب التي لم يكن ليحصل عليها، لولا هذا الدفع العاطفي المهول بسبب مأساته.. نعم إننا من شعوب العالم التي يلعب فيها التعاطف دورا كبيرا في توجيه العقول واستمالة القلوب، فمن أصابه تعاطف الناس لمحنة ألمت به حتى ولو كان ظالما آثما شريرا طاغيا، فقد ظفر وانتصر، وحقق كثيرا من المكاسب.. ومن سمة التعاطف، أنه يلغي الفهم والعقل والمنطق والدين والضمير، ويا حسن حظه من نال تعاطف الناس، ليجعلوا منه بطلا قوميًا ونبيًا من الأنبياء.

أذكر بعد وفاة الفنان هيثم أحمد ذكي، ولأنه يتيم، إذا بالدنيا كلها تبكيه تعاطفا، حتى بالغوا في هذا التعاطف إلى حد يثير الحيرة، حين جعلوا منه أيقونة الحزن والهم والغم.. وصار الكبير والصغير يعبر عن غصة قلبه وألم نفسه، لهذا اليتيم الذي مات.. حتى صار هناك أناس لا تنهد قلوبهم لشيء، ولكي يجاري الموجة، يخرج علينا ليقول: أنا حزين على هيثم.

واليوم خرجت فتاة اليوتيوب "حنين حسام" لتذرف الدمع بعيون النادمين بعد حبسها ومقاضاتها، فإذا بقطاعات عريضة من الفارغين التافهين. تعلن تعاطفها الكبير معها، وتدافع عنها، وتلغي من عقولها وتمحوا من ذاكرتها، ما سلف من مجون الفتاة، إن هذا التعاطف أعمى.. لا ينطلق من الحق، وإنما من الهوى والضلال.

أذكر قديما أن رجلا عاديًا قد ترشح لمجلس الشعب، وحدثت مشادة بينه وبين أحد الضباط المؤيدين لمرشح الحكومة والحزب الوطني، فما كان من الضابط إلا أن لطمه على وجهه أمام الناس، وكانت هذه اللطمة هي الحكم النهائي بسقوط مرشح الحزب الوطني، ونجاح هذا المستقل، الذي نال ملايين الأصوات التي تعاطفت مع هذه اللطمة.. إنه التعاطف إذن الطريقة السحرية التي نملك بها القلوب، والتي لو نلناها فقد كسبنا كثيرا، وما أيسر أن ننالها بين شعوب لا وعي لها ولا ثقافة ولا علم، لأن الهوى هو الحاكم الغالب على عقولهم.

الأزهر يرثي مسيحيًا

حينما كان الأستاذ محمد فريد وجدي يترأس تحرير مجلة الأزهر، في عهد الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي، ولما مات جبرائيل باشا تقلا صاحب جريدة الأهرام رثاه في صحيفة كاملة من مجلة الأزهر، وهو عمل يشبه تمامًا ما فعله رشيد رضا حينما رثا جرجي زيدان، مع الفارق الكبير بين الرجلين.

ونحن إن كنا قد انتقدنا الشيخ رشيد في هذا الرثاء، لأن من رثاه كان رجلا يضر بتاريخ أمتنا، ويعمل على تشويه رجاله ومعالمه، فإن الأمر يختلف بالنسبة لرثاء وجدي لجبرائيل تقلا، فكلا الأمرين يظهر سماحة الإسلام وتقديره للآخرين، ولكن ما حدث ما أثار ثائرة الذين لا يفهمون مقاصد الأعمال وغاياتها من بعض الأزهريين؛ الذين استنكروا أن يُنشر مثل هذا الرثاء لرجل مسيحي في المجلة المعبرة عن الأزهر حصن الإسلام والناطقة بلسانه .

وهو ما دفعهم أن يرفعوا شكواهم إلى شيخ الأزهر المراغي، حتى قال له أحدهم: إن بعض علماء الأزهر ينتقلون إلى رحاب الله، فلم نر الأستاذ وجدي يخصهم بالرثاء كما فعل مع صاحب الأهرام!.

فابتسم الشيخ الأكبر وقال لمحاوره: أمعك مقال الأستاذ وجدي؟ قال: نعم قال هلم فاقرأ، فأخذ الشيخ يتلو المقال منفعلاً، وكان الشيخ الأكبر قد قرأه من قبل، حتى إذا بلغ القارئ منتصف القول، وهو في قمة انفعاله، قال له الشيخ: سأقرأ أنا، ثم أخذ المجلة يتلو في جمال نبرة، وحسن إلقاء قول الأستاذ وجدي:

"إن الأزهر ومجلته لتشارك الأمة في أساها، وتذكر من فضائل الفقيد الكبير ما كان يقابل به بحوث حضرات العلماء من الاحترام، ويحلها في أرفع مكانة من الأهرام، ولطالما نشر مقالات في موضوعات علمية بحتة كان أولى بها المجلات، ولكنه كان يؤثر أن يكون عنوانًا للأزهر في أداء رسالته، وفي عهده الجديد، مما يدل على عنايته بهذه الناحية، أنه عندما ثار جدال بين القائلين بجواز ترجمة معاني القرآن الكريم والذاهبين إلى تحريمها، وانتصر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبر الشيخ المراغي للقائلين بالجواز، نشر الأهرام بحثه في عدد واحد على طوله، ولم يكن فضيلته وقتها شيخًا للأزهر، فهذه النزعة الشريفة مضافة إلى الكثير من غيرها لا يصح أن تترك بدون تقدير وإعجاب، فلا غرو أن عُدت خسارة الآراء الحكيمة بموته فادحة، أحسن الله عزاء أسرته، وجعل من نجله خلفاً جديرًا بسلفه العظيم"

ثم قال الأستاذ متسائلاً: أفهمتم مرمى الجملة الأخيرة؟! إن الأستاذ وجدي يعرف أن الأهرام أقوى صحف العالم العربي، وأوسعها

انتشارًا، ويخاف أن تتخلى عن طريقة صاحبها الراحل في تشجيع المباحث الإسلامية، فأشار إلى الخلف باحتذاء السلف! فلو لم يكن له في مقاله غير هذا التوجيه لكان جديرًا بالثناء لا بالانتقاد!

وهنا تراجع المعترض قليلا ثم سأل: ولماذا لا يكتب الأستاذ وجدي عن الراحلين من العلماء الأزهريين كما يكتب عن صاحب الأهرام؟

فرد الشيخ بقوله: من الدارس الخبير لهؤلاء؟ أنتم أم الأستاذ وجدي؟ لقد سكتم فلم تكتبوا شيئًا وأنتم زملاء وأصدقاء، وألو خبرة بالقوم، أيلام الأستاذ وجدي إن سكت على قوم لا يعرف عنهم شيئاً؟ ولا تلامون وأنتم تعرفون كل شيء ثم تقصرون! كنت أفهم أن يقول أحدكم: كتبت مقالا في تاريخ فلان رحمه الله ثم حالت المجلة دون نشره! هنا يجب أن نسأل، وأعرف لم حجب المقال؟ أما أن نلوم رجلا محدود الاتصال بالعلماء لأنه لم يكتب عنهم، ولا نلوم أنفسنا فكثير.

وأراد الإمام المراغي أن يغير وجهة النقد الصائب، فقال: لقد نشر فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون مقالا ممتازًا في صحيفة الأهرام، وذكر فيه أكثر مما ذكر الأستاذ وجدي، فلماذا لا تعترضون عليه إذن؟ لقد صادف مقال الأستاذ أبي العيون ارتياحي لأنه ينحو منحى مقال الأستاذ وجدي، فهل لديكم ما تقولون؟ وانتهى المجلس بالاعتذار.

وأمام هذه المناظرة العقلية والملحمة المنطقية، أوضح المراغي ما في مقال وجدي من دعوة للتسامح وتقدير الأزهر لكل من يخدم العلم الشريف، حتى ولو كان من غير الملة، وهو فهم عميق لم يستطع الحرفيون أن يقفوا عليه، حتى أعطاهم المراغي هذه المحاضرة في الوعي والفهم وطرق الإدراك.

السياسة عالم بغيض

عالم السياسة عالم بغيض، ولا يخوض غماره إلا أشخاص ذو سمات وصفات فولاذية، يستطيعون من خلالها تحمل المشاق من دروب الخصومة والشقاق والاتهامات والإشاعات والكراهية والبغض والدسائس والمؤامرات والأكاذيب والخداعات والمقالب.

ولكن هل يا ترى يمكن لأهل الفكر والأدب والعلم، أن يخوضوا هذه المسالك الوعرة، وأغلبهم أرق الناس أفئدة وبصيرة وحسًا وشعورًا؟

لقد خاضها كثير منهم فلم يجنوا إلا كثيرًا من الغرم والغم حتى اعتزلوها وتابوا عنها.! ولعل العقاد خير نموذج في هذا المجال حينما طلقها بالثلاثة، وتفرغ للعقاد الجديد والمختلف، عقاد الفكر والأدب والشعر والتأليف.!

ولعلي هنا أسوق بعض الأمثلة لما تعرض منهم بسببها إلى خداعات ومقالب أساءت لهم ولم يستطيعوا الإفلات من تهمتها.

كان الشاعر المرحوم «حفني ناصف» من أظرف شخصيات الجيل الأسبق، ومن أكثرها تدبيرًا للمقالب الساخنة، وأشهر مقالبه ما

دبره للمرحوم « توفيق البكري » شيخ السادة البكرية، وكان الشيخ على علاقة سيئة بالخديوي « عباس حلمي الثاني » الذي كان يتهمه باستمرار أنه يدس له لدى السلطان العثماني، ولدى الصدر الأعظم في استانبول، كما اتهمه بأنه هو الذي حرض «مصطفى لطفى المنفلوطي» على كتابة قصيدته التي هاجم فيها الخديوي وكان مطلعها:

قـدوم ولكـن لا أقول سعيد**وملك وان طال المدى سيبيد

ولما كان « حفني ناصف » من أصدقاء الخديوي فقد فكر في تدبير مقلب ساخن لشيخ السادة البكرية، واعتمد في ذلك على معرفته بنفسية الشيخ، الذي كان شديد الثقة بمواهبه الأدبية ومعلوماته وشاعريته الفذة، وفي أحد الأيام قال له حفني ناصف:

– هل تبارينى في الشعر؟! وما كاد يتم الكلمة، حتى قامت قيامة الشيخ، واستفزه أن أحدًا يظن نفسه يستطيع كتابة شعر أفضل من شعره، وصاح بحفني ناصف أن يختار أي موضوع يرغب في المباراة فيه، وليثق بأنه مهزوم.

وتظاهر «حفلى ناصف» بالتفكير، وأخذ يستعرض أغراض المشعر، ويهون من شأنها، ثم اقترح في صيغة التضعيف أن يتباريا في مدح زذيلة اللواط بالفتيان، وتفضيلها على غيرها من ضروب المتعة الطبيعية.. هذا إلا إذا كان الشيخ لا يعرف الكتابة فيها.

وصاح الشيخ مستفزا:

- كيف؟

وأبدا استعداده للكتابة على الفور، وأخرج ورقة وقلما وأخذ يمدح هذه الرذيلة، ويستطرد ما شاءت له شاعريته، وعندما انتهى أكد له حفني ناصف، ان شاعريته لا تبارى.. وأخذ ما كتبه معه.

ووصلت القصيدة الى الخديوي عباس، فسر بها سرورًا عظيمًا، وأخذ يشهر بالشيخ في كل مكان، وكان « البكري » معروفا بصلته بدار المندوب السامي، فتعمد الخديوي أن يعرض القصيدة على « اللورد كرومر» ومن يومها لم يُدع شيخ السادة البكرية لأي حفلة من حفلات اللورد.

وفي موقف آخر عام ١٩١٣ حدث أن رشح المفكر الديمقراطي «أحمد لطفي السيد» نفسه لعضوية الجمعية التشريعية، في إحدى دوائر مديرية الدقهلية – وكان أيامها رئيسا لتحرير - الجريدة، ومن أعيان الناحية المعروفين ـ وهو ما أقلق منافسه «عثمان سليط » وجعله يوقن أن الدائرة سوف تطير مائة في المائة.

وكاد سليط، يتنازل يأسًا من الفوز، لولا أن صديقًا له أقنعه بأن هناك وسيلة تقضى على منافسه، وعلى الفور اختارا مجموعة من أعداد

الجريدة، التي تحمل مقالات « لطفى السيد » في الديمقراطية، ومساواة الرجل بالمرأة، وبدأ الاثنان يطوفان بالدائرة، فاذا ضمهما مجلس، قال الصديق:

– إن « لطفى بك، كفؤ ونزيه.. بس يا خسارة.!

فاذا سأله الحاضرون:

– على ايه يا سيدنا البيه؟

قال: لو ماكنشى ديمقراطي، وينشط أحد أنصار لطفى السيد، الى دفع الاعتراض، متسائلا عن عيب «الديمقراطية»، عندئذ يقول الصديق:

ـ الا تدري ما هي الديمقراطية؟ انها مصيبة على الدين وعلى العادات! الا يطالب لطفى بك بمساواة المرأة بالرجل؟ طيب اليس من حقي الرجل أن يتزوج بأربع نساء؟ فاذا تساوت المرأة والرجل في الحقوق.. الا يكون معنى ذلك أن تصبح للمرأة نفس حقوق الرجل، فتتزوج هي الأخرى بأربعة رجال؟ إذا كان هذا يرضيكم يا حضرات الناخبين، فانتخبوا صاحب هذا الرأي المخالف لدين الله وأحكام الشرع وعادات المسلمين.

وبعد هذا يناول الصديق السامعين أعداد «الجريدة، ليقرؤوا ويتأكدوا بأنفسهم من صدق الكلام، وهو ما كان ينتهي عادة بإلقائها على الأرض مصحوبة بكلمات «نعوذ بالله ان هذا لكفر صحيح.

وأصبح «لطفي السيد» من يومها معروفا باسم «لطفي الديمقراطي» إذا جاءت سيرته تصاعدت على الفور كلمة: لطفي الديمقراطي.. اخص.. دا ديمقراطي.. يدعو لاستباحة الأعراض، واختلاط الأنساب والخروج على أحكام الشرع الحنيف، ولم تكن المسألة في حاجة الى مجهود بعد ذلك، فقد طارت الدائرة.

حضارة الإرهاب

عجبا لهؤلاء الذين لا يطيقون ولا يتحملون أن تظهر أي معان أو صورة من صور القوة للإسلام، وإذا رأوا أي شيء من هذا القبيل، سارع فريق منهم لاتهام الإسلام بأنه دين الإرهاب، أما الفريق الآخر المتخاذل المنبطح المسلوب من معاني وجوده، فيسارع إلى إخفاء هذه المظاهر، حتى يردوا عن الإسلام تهمة الإرهاب بزعمهم.

الإمام ابن تيمية كان يقول في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم: (مصحف يهدي وسيف يحمي)

ولعل مظاهر أو أقاويل القوة في الإسلام قد صارت طعنا عليه، وثلمة يؤتى من قبلها، بينما هي في أي كتاب أو دين أو حضارة أخرى غير الإسلام، تعد مظهرا من مظاهر وجوده وعزه وشموخه.

انظر للحضارة الفرعونية، وتحسس مظاهر القوة والعنف فيها حسب تعريفهم، لوجدت جدران المعابد التي تترجم لها، تنضح بهذا الشرر الذي يبرر لنا أن نقول إن أردنا أن نقول: إن الحضارة الفرعونية كانت حضارة القسوة والعنف والإرهاب، وياله من استنتاج وقول يذهل عقول البعض، ويهيج مكامن هلعهم، إذ كيف تنسب مثل هذه

الحضارة، بمثل هذه النعوت القبيحة المنفرة، يقولون هذا ويستنكرونه، بينما يرحبون به إذا وُسم به الإسلام.

وإن شئت أن تنظر في اليهودية والنصرانية ففي العهد القديم والجديد، عجبا من مظاهر الشدة والعنف، كل هذا مقبول، أما أن يذكر في الإسلام، فهو المصاب والمقتل الذي يسارع أتباعه لمحوه، وكأنه عار يخفونه، ومذمة يتبرؤون منها.. كما يسارع المرجفون بتصيدها ليمسكوا بخناقه، وكأني بهم أتمثل قول الشاعر:

أحرام على بلابله الدوح * حلال للطير من كل جنس

إن كل أمة من الأمم، وكل وطن من الأوطان، إذا حاول الفخر بحضارته وسلفه، فإن عنصر القوة لا يغيب عن الخاطر والذكر، لأنه الذي يحوي معنى العظمة والفداء، لقيام هذه الحضارة وهذا الوطن.

كل شعب من الشعوب اليوم يحيي ذكر أبطاله وقادته، بل يمجد ذكر شهدائه في ميادين الحروب، فلم نسمع تهمة لهذا الإحياء والتمجيد بالإرهاب.

العلمانيون المرجفون عابوا على وزارة التعليم في بلادنا تقريرها لقصة عقبة بن نافع، بحجة تربيتها للأجيال على معاني التطرف والإرهاب، بينما لو قررت عليهم جهاد رمسيس أو كفاح حتشبسوت، لكان ذلك تربية وطنية سامية.!

أصابني الذهول حينما قرأت عن مطالبات العلمانيين للمملكة العربية السعودية، بإزالة السيف من العلم، حتى تتواءم المملكة مع المرحلة الجديدة، وتنفي عن نفسها تهم الإرهاب والتطرف.. وغفلوا عن كونه من التراث الذي يجسد رحلة المملكة، ومؤسسها لحياة طويلة من الجهاد لقيام هذه الدولة المترامية.

أذكر حينما افتتح مسجد أيا صوفيا للصلاة فيه وقام الخطيب وبيده سيف يشير به، كتقليد فقهي قديم، هاجت الدنيا وماجت واتهموا تركيا وحكومتها بالإرهاب والعنف.. وبعد هذه الحادثة انهمرت الصور من بريطانيا وروسيا للمملكة اليزبس وقساوسة الروس، وهم يعمدون الجنود والضباط بالسيوف، وخرس الجميع ولم ينطق بشيء، أما حينما يتعلق الأمر بالإسلام، تهيج الألسنة وتبعث الزيوف.!!

قرأت مؤخرا في أدبنا العربي وصف المتنبي لخيمة سيف الدولة، فقد ذكر أن هذه الخيمة أو القبة التي كانت تُضرب على سيف الدولة، كانت قطعة فنية رائعة، ففيها صورة روضة بديعة وأغصان الأشجار ترفرف عليها طيور لا تنقص عن الطيور الطبيعية إلا بالغناء، وفيها صور وحوش يحارب كل جنس عدوه.

وفي ناحية من الخيمة صورة ملك الروم، وصورة سيف الدولة، وملك الروم يسجد لسيف الدولة، ويخضع له ويتذلل، ويقبل بساطه؛ إذ لا يقدر على تقبيل كمه ويده لارتفاع مكانه، وبين يدي سيف الدولة الملوك متكئين على مقابض سيوفهم من هيبته، ففي ذلك يقول المتنبي:

وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة" "لأبلج لا تيجان إلا عمائمه

تقبل أفواه الملوك بساطه" "ويكبر عنها كمه وبراجمه

قياما لمن يشفي من الداء كيه" "ومن بين أذني كل قرم مواسمه

قبائعها تحت المرافق هيبة" "وأنفذ مما في الجفون عزائمه

فلا شك أن الأدب العربي في رؤية بعض المهاويس، حينما عرض لهذا المظهر من مظاهر القوة، قد سجل ملحمة من ملاحم الإرهاب، التي يجب أن نأسف لها ونتوارى منها خجلا.

الرافعي وإشكالية الحب والدين

الحب ليس عيبًا ولا نقيصة، لأنه ذلك الشعور السحري الذي يتسرب إلى النفس دون إذن منها أو رأي، إذ يكون كسحابة موارة تهبط على قلب صاحبها، فتنقله من حال إلى حال.

بعض البيئات والمجتمعات والأفهام، ترى إظهار الحب عيب ونقيصة، بل وأحيانا فضيحة، وتظل تطارد الإحساس به وكأنه عار وشنار، فهبني اليوم قلت: إني أحب، لضجت الدنيا بهذا الاعتراف وطارت بذكره ركائب الركبان، وتناقله الشعراء والأدباء وملأ دواوين الخُطب والأدباء، وبعض المجتمعات والنفوس، تراه سمة من سمات الحياة، وخصلة من طبيعة الإنسان لا يمكن الهرب منها والتفلت من أقدارها.

وهو ذات الاختلاف الذي نراه في البيئات الدينية وطبيعة المنتسبين إليها، فقوم من المتدينين جبلوا على الجِد والصرامة والتشدد، يرون هذا الحب لهو من نسائج الشيطان، فيقاومون أسبابه ويناهضون دواعيه، ويستغفرون منه وكأنه جريمة نكراء، وذنب عظيم، يخرم الهمم ويشين الرجال، وقوم آخرون من أهل الدين، يفسحون له الحديث، ويرحبون به، ويرونه من سمات الإنسان التي لا يمكن إنكارها والتغاضي عنها.

وقد رأينا وعرفنا كثيرًا من شيوخ الدين الكبار، من أعلن عن دوامة الحب التي شغلت باله، ألهبت فؤاده، وكان آخرهم أعجوبة دهره ولوذعي جيله الدكتور الأزهري يوسف القرضاوي، الذي ذكر محنة حبه في مذكراته تماما كما ذكر بلاءه في دينه.

بل رأينا وسمعنا عن قصة الحب الملهبة بين الدكتور محمد رجب البيومي وهو من هو علمًا ودينا ومنارة في الدفاع عن الإسلام، مع الشاعرة الإيرانية التي شغلت باله وفؤاده سنوات وسنوات.

ولعل صاحب النصيب الأكبر في هذه الإشكالية، كانت من نصيب أديب الإسلام الأكبر (مصطفى صادق الرافعي) الذي ينال منه كل فريق من الفريقين مأربه، فالمتدينون المتشددون من أصحاب التجهم والتزمت، لا يعرفون غير الرافعي صاحب القلم الإسلامي الذي قهر طه حسين، وجلد كل منحرف من خصوم الدين.. أما الطرف الآخر.. فسحرتهم كتبه في الحب والجمال وخطاب العواطف، التي لم ينسج على منوالها وفلسفتها بخط أديب عشق وأحب كما أحب الرافعي، فكانت كتبه.. رسائل الأحزان وحديث القمر والسحب الأحمر وأوراق الورد، مقصد العاشقين، ومناهج الملتاعين.

وهي الصفحة الإنسانية المجهولة في عرف المتدينين، إذ لا يتصور كثير منهم أن يكون هذا السيف المسلط الممشوق على أعداء

الإسلام، هو نفسه ذلك القلب العائم الهائم في دنيا الغرام.. ولعل الإشكالية ليست في الرافعي، وإنما فيهم أنفسهم حينما تنكروا لهذا الجانب الإنساني الكائن والملموس.

يقول العريان: إن مكتب الرافعي كان عليه ثلاث صور، صورة الشيخ محمد عبده وصورة الرياضي (صاندو) وصورة ملكة جمال تركيا في وقت مضى (كريمان هانم خالص) وعندما سأله العريان عن اجتماع تلك الصور، قال عن صورتي الشيخ محمد عبده وصاندو: هاتان قوتان تعملان في نفسي: قوة في روحي، وقوة في جسدي، فسأله عن الصورة الثالثة فقال: و هذه ما أجملها! انظر! ألا تقرأ شعرًا مسطورًا على جبينها.؟!

وأعتقد أن بعض المتدينين لو رأى صورة هذه المرأة على مكتب الرافعي، ذلك المكتب الذي صُفت ونُقرت عليه سطوره ضد أعداء الإسلام، فلن يقول له إلا أنه خلط عملا صالحا وآخر سيئا.! لكنه واضح في بحر الحقيقة حينما كتب رسائله الغرامية في الحب والعواطف، فلم يخرج فيها عن هدي الدين والمعتقد، لأن حديث هذه العاطفة كما بين أحد الباحثين وثيق الصلة بالقرآن الكريم، فهو الغزل العفيف الذي يشعرك بارتفاع مشاعرك وسمو وجدانك، وهو النمط البياني الراقي الذي لا يمكن أن تسف معه إلى نزوة هابطة أو عاطفة رعناء.. وما أجمل وأروع ما نطق به قوله ليعبر عن حاله:

قلبي يحب وإنما ** أخلاقه فيه ودينه

الرجعة الهيكلية الإسلامية

ما أجدر أن تقوم أبحاثنا على رصد التحولات الفكرية والعقلية التي زلزلت مفاهيم كثير من الأدباء والمفكرين الكبار، فاجترتهم إلى الإيمان بأصولهم اجترارا عظيما، تبينوا معه خطأ ما كانوا عليه من ظلم لحضارتهم وافتيات على تاريخهم وأمتهم وتراثهم.

لم يكن (محمد حسين هيكل) باشا اسما لمع في سماء السياسة المصرية فقط، وإنما كان أديبًا ومفكرًا من أعظم مفكريها المعتبرين، ولقد كان هيكل واحدًا من الأدباء والمفكرين الذين كانت لهم رجعة وأوبة إسلامية يتنكرها التاريخ ولا يلقي لها بالا، بل إنها تسببت أن يصيبه داء الإهمال والتغافل، بعد أن كان ملء السمع والبصر، ولو أنه ظل على ضلاله القديم، لكان اسمه يدوي في المحافل إلى اليوم، شأنه في هذا شأن طه حسين وغيره من صنائع الفكر الغربي، لكن هيكل لم يكن يعبأ بكل هذا، وإنما يعتز بفكره وحده، حينما تبينت له الحقيقة أنصفها ولم يخف أو يتوارى بهذا الإنصاف، وإنما أعلنه في كتاباته الإسلامية الرصينة التي إن دلت فإنها تدل على رجل ذاب هياما في تاريخ أمته وعظمة رموزها، فكانت مؤلفاته الشاهقة: حياة محمد

١٩٣٧ – في منزل الوحي

١٩٤٢ – الصديق أبو بكر

١٩٤٤ – الفاروق عمر

١٩٦٠ – الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة

١٩٦٤ – الإيمان والمعرفة والفلسفة

١٩٦٤ – عثمان بن عفان: بين الخلافة والملك

سافر هيكل إلى فرنسا وفي مدينة النور، تلقى مبادئ الحضارة الأوربية ويدرس القانون ويطالع آثار أدبائها ومفكريها الكبار، فتشرب روح هذه الحضارة تشربا متغلغلا يصل كما قيل: إلى حد النخاع الرقيق في تركيبه العضوي، وعاد إلى مصر ليعلن مع زمرة من زملائه إيمانهم المطلق بهذه الحضارة التي آمنوا بها، وأنها سبيل الخلاص ومعجزة الإنقاذ.

ووجد هيكل وزملاءه تشجيعا كبيرا ورعاية وعناية من الاستعمار وعملائه، فمنحوهم وصدرهم وجعلوا منهم سدنة التوجيه وقادة الرأي، وفجأة تقوم الحرب العالمية الثانية وتنتكس الحارة الأوروبية في عين عشاقها وربائبها وقد رأوها بين عشية وضحاها تتحول إلى غابة موحشة، تعج بوحوش لا إنسانية لهم، تهلك الحرث والنسل وتصب

لهيب مدافعها على الأبرياء والآمنين، فخربت الدور ودمرت المدن، وخلفت وراءها صراخ الثكالى والأيتام والأرامل، ودماء وأشلاء أدمت الأرض في كل مكان.

أفاق هيكل على هذا الزلزال الذي بدد أكذوبة الحضارة الغربية وزيفها الخادع، فماذا يفعل، وما المبادئ التي يجب أن تحل في إيمانه بعدما انكشف له فساد إيمانه القديم؟!

توجه هيكل باشا إلى الدعوة للحضارة الفرعونية وإيقاظ مجدها فكتب مقالات تشيد بالفرعونية وتعتبرها صيحة البعث المرتقب، ودعا الناس أن يستمدوا أمجادهم من خوفوا ورمسيس وتحتمس، وأن سيرتهم مبعث الغيرة التي تلهب الحنين إلى المجد.

ونظر هيكل إلى منحاه الجديد وكان صادقًا موضوعيا مع نفسه حينما أخبره التاريخ أن المصريين قطعوا أسبابهم بتراث الفارعين وآمنوا بحضارة الإسلام، وبأن عظماء الإسلام ورموزه الكبار صاروا في أعينهم ويقينهم من رميم مدفون في الأهرامات والكرنك ومقابر القدماء، ففاء إلى رشده، ودوى في روعه صوت الحق الذي يناديه، فتوجه إلى الحضارة الإسلامية، موقنا أنها الوجهة الصحيحة التي يمكن لها أن تؤدي رسالتها في بعث الضمير والروح والعزة والمجد، فأخذ يدرس أسفارها ويتمعن في تراثها حتى آمن بها إيمانه العظيم الذي لا يتخلله ريب، وصار من

دعاتها الكبار، جنديا تحت لوائها ورايتها، يسخر قلمه وفكره في إبراز محاسنها وجمالياتها لأنها النبراس الحقيقي الذي يضيء الطريق، وقال بعد أن اعتذر عن همه القديم: " لقد رأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو"

هكذا كان هيكل وهكذا كانت رجعته التي يتجاهلها أهل عصره، لأنها شهادة من ربيب الحضارة الغربية، بسقوطها وزيفها وفسادها وعدم صلاحيتها لقيادة البشرية، وأن السبيل وحده في إسلامنا لا فرعونيتنا.

الأهرام تفاجئنا

شيء جميل ما حدث مؤخرًا من جريدة الأهرام حيث نشرت تقريرًا أدبيا تحت عنوان (أدباء خاصمتهم الأضواء.. حكايات وأسرار)

كان من المتوقع أن يكون الحديث عن أدباء تتوافق أفكارهم من التوجهات العلمانية التحررية التغريبية، وذلك لغلبة المتغربين ومن يسمونهم بالتنويريين وسيطرتهم على الصحف ومنابر الإعلام، لكن ما حدث من الأهرام كان شيئًا غير مسبوق، حينما تحدثت عن عادل كامل وجاذبية صدقي، وكانت المفاجأة المذهلة حديثها عن الرائد الإسلامي الكبير محمد فريد وجدي.. وفعلا ما كان.. فإن من الغرائب المدهشات أن يُجهل رجل عالم أديب مفكر مثل فريد وجدي، ولا يعرفه المشتغلون بالفكر والأدب، بل لا يعرفه كذلك المتدينون ولا يقرؤون له، وقد كان الرجل في يوم من الأيام حائط صد إسلامي كبير، وفارسًا من الفرسان الذين يزودون عن حياض الدين، وأنت تعجب من الأستاذ العقاد الذي قلما تنفعل عاطفته وقناعته برجل، فإذا شهد لأحد من الناس، فإن هذا المشهود له لا شك على درجه كبيرة من العظمة والعبقرية، بينما العقاد لم يشهد لفريد وجدي فقط، وإنما كان مفتونا به، وجزم أنه كان له من اسمه نصيبا فهو فريد لا مثيل له.

لم يكن العقاد وحده من ذكر فريد وجدي وأشاد بفضله وعظمته، بل نجد شيخنا العلامة محمد رجب البيومي كان أكثر حفاوة وافتنانا بالأستاذ وجدي، حينما اندفع ينقب عن تراثه ويعيد إحياء كتبه للقراء، بل سارع فألف كتابا خاصا عنه، وشجع أقرب تلاميذه إليه وهو الدكتور هشام البيه أن ينال رسالة الماجستير عن الأستاذ محمد فريد وجدي.

هذا الرجل المدهش كان أمة وحده، وخير شاهد على هذا دائرة معارف القرن العشرين التي ألفها من ١٠ أو ١١ مجلدا كبيرًا وهو العمل الذي لا ينجزه إلا جيش من الباحثين، لكن وجدي تحمل العبء وحده.. كان مما يميز وجدي رغم غيرته على الدين، أنه كان مهذبا إلى أبعد حد، لطيفا هينا لينا يكسب قلوب خصومه قبل محبيه، حاول يوما زكي مبارك وهو صاحب اللسان الحاد الذي ينطق أحيانا بالسم، وأحيانا أخرى يتحول إلى رعد قاصف لا ينجو منه خالفه، وقد خالف وجدي يوما فانبرى ليستخدم معه الأساليب العنيفة التي درج وتعود عليها، لكنه رجع واعترف أن وجدي بما تحلى به من الأدب والموضوعية، جعله في موقف محرج واستحياء أن يناله بسوء.

أروع ما في وجدي ومن أجل سماته شيئان الأول منهما، هو تشجيعه وتحميسه للموهوبين من الشباب الذي كان يفسح لهم المساحات فيما يشرف عليه من المجلات، فينشر لهم ويجعل أسماءهم مع أسماء الكبار دفعا لهم لمزيد من الابداع.

الأمر الثاني.. هذه السماحة المذهلة في الترحيب بالرأي المخالف، فرغم كونه رئيسا للتحرير، لم يكن أبدا يقف أمام رأي أو مقال لكاتب أو محرر يخالف رأيه ونظرته، فما أسماه وأجله رحمه الله.. ولا يسعني في النهاية مع دهشتي واستغرابي إلا أن أوجه شكري وامتناني للأهرام أن ذكرت الجماهير بعلم من أعلام الإسلام وحارس من حراسه الأشاوس.

لا تقرؤوا كلامي

أطالب الناس أن يتعاملوا بأدب في اختلافهم مع بعضهم البعض، وأصارحهم بأنهم سقطوا في كل اختبار مع كل موقف يتباينون فيه، وأن همّ أحدهم أن يسخر من صاحبه ويحقق عليه الغلبة والنصر، كان ذلك باديا جدا في أخر هذه الأحداث التي مرت بأمتنا.. هل إيران جادة ام هازلة، في ضرباتها الصاروخية الموجهة إلى إسرائيل؟

فريق أيد إيران واتهم بالحمق من قزم ضرباتها، وفريق آخر هزأ من صواعقها ووصفها بالفشينك والتمثيل والهزل، ولم يجد الفريقان غير الحمير ليكون التشبيه والوصف الذي يخلعه كل منهما على الآخر.

وبينما أنا أزكي هذا الخلق وأعلم الناس أننا امة واحدة ومصير واحد لا يليق بنا أن نكون على هذا النفور والخلاف المقزز الموتور، يخرج علي عقل مأفون فيتهمني أنني أجعل الرافضة كأهل السنة وأنني وضعتهم معنا ضمن مكون الأمة الواحدة، وترجل الفارس الشريف النبيل واعتذر لي أنه كان يحترمني وأنه مضطر أن يلغي الصداقة بيننا لأنه لا يستطيع أن يتخلى عن دينه وعقيدته وقام بالحظر.

أما أنا فأقول: هل تتخيل حينما أجهد نفسي وأتعب ذهني وأكلف وقتي في تحقيق الأفكار التي أشارك بها القراء، ثم يخرج علي عقل

مثل هذا لا يدرك شيئا ولا يعي من المكتوب حرفا، ويتخيل نفسه صلاح الدين الايوبي، أو العز بن عبد السلام صاحب المبادئ الذي يركل الدنيا بقدميه من أجل مبادئه.. يا أخي أنت لم تفهم أي شيء، ولا تستطيع فهم أي شيء، فالحمد لله الذي أراحنا من وجودك.. ولنترك صاحبنا هذا فهو أمر عادي وظاهرة مضحكة تتكرر مع الجميع، لكنها ذكرتني بمناسبات تُعييني كثيرا حينما يقرأ كلامي من لا يفهمون، فيسوقهم عدم الفهم إلى الولوغ في مناطق وعرة لم أقصدها أو أريدها، فيحملونني فوق طاقتي، وربما يقذفني أحدهم بجناية أو جريمة وأنا منها برئ لا ذنب لي إلا أنني كتبت كلاما شاهده أبله، أو قرأه -مخبول- أو مر به مشلول الوعي عيي الادراك.

قرأت مرة أن رجلا تزوج بامرأة، وبعد شهور تم الطلاق، فاقترب منه صديقه وسأله: لماذا طلقتها؟ فقال بكل برود: لأنها كاذبة! فصمت صديقه برهة ثم قال له: وكيف كذبت عليك؟ قال: بعد الزواج بأيام وجدتها تقول لي: البيت عاوز فلوس.. فغفرت لها ذلك وسامحتها، فإذا بها بعد أيام تردد نفس المقولة وتلح فيها، فلم أطق هذا الكذب منها، وتفاهمت معها واتفقنا على الطلاق لأني لا أحب الكذب ولا الكاذبات..

فاندهش صديقه وقال له: جميل ما تقول ولكن زوجتك لم تُخطئ، فأين الكذب في قولها؟ فرد عليه الزوج البائس وقال له: وهل يتكلم البيت ليطلب فلوس؟!

تخيل عزيزي القارئ أن هذه النظرة نفس ما يتعامل بها كثير من القراء مع الفكر والمقالات والثقافة، يعاملونها معاملة حرفية نصوصية، ويأخذونها من ظاهرها بصورة غير طبيعية، فيرفضون الاستعارات أو التشبيهات أو التأويلات ولون من ألوان المحاز، أو أي صورة من صور البلاغة إن تحتم الأمر، حتى لو أنك سقت كلاما على سبيل التهكم؛ أخذوه وكأنك تتكلم بجدية، وإن سألت سؤالا تستفسر فيه عن شيء، جعلوه تصريحًا واتهامًا وإقرارًا.

وهذا الصنف حقيقة أجد معه معاناة قوية وألقى منهم عنتا شديدا، ولا أجد نفسي حرًا معه، ويشعر عقلي أمامه بالعجز، ولا أعرف كيف أشرح وجهة نظري أو أدافع عن نفسي.؟

إنني لا أتهم أحدا بالجهل وضيق الأفق، ولكني أحزن كثيرا حينما لا يصل كلامي إلى الأفهام، أو أجد مثل هذا الجمود أمام كلامي، الذي يُبنى أكثره على التمويهات والاستعارات والتشبيهات.

أذكر مرة أنني دخلت في معترك فكري، ونقاش حاد مع بعض الناصريين في شباب قريتي، فاحتد بي الحديث حتى قلت لهم: (ألا تتذكرون ماذا فعل عبد الناصر الذي تعبدونه اليوم) وهنا توقف الحديث، بل توقفت الدنيا، ووجدت سيلا جرارا مدرارًا من التهم التي أصبت أمامها بالشلل الفكري والعقلي والحركي.!

وإذا بهم يتشنجون ويتصايحون ويقولون: انت بتكفرنا؟

تتهمنا إننا بنعبده؟

انتا شفتنا بنسجد له من دون الله؟

ولا بنصلي له؟

ينهار ..... بنعبده مروة واحدة؟

أستغفر الله العظيم؟

حرام عليك يا أخي بتكفر الناس؟!

وبعد هذه السياط تعثرت ووقفت، ولم أستطع النطق وانسحبت وتراجعت، وأقررت أنني أنا المخطئ وليسوا هم.. لقد كان لابد لي ابتداءً أن احترف الحديث، وأؤمن أن لكل قوم مقالا، وحديثا خاصًا بهم، ولا يجب أن أعاملهم بما أعامل به المثقفين أو أهل الوعي والمعرفة.

ولا شك أنني أقصد بهذه العبادة، بأنها عبادة الهوى والاتباع، وليست عبادة الصلاة من السجود والركوع والقيام.. وتذكرت هنا هذا الحديث النبوي الشريف:

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب قال فسمعته يقول: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} قال: قلت يا رسول الله إنهم لم يكونوا

يعبدونهم قال: أجل ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم.

إن بعض العقول حتى تفهمهم جملة أو تعبيرا، يحتاج منك إلى قوة سحرية تتخطى بها أزمانا طويلة وسنين مديدة قضيتها في التعلم والقراءة والفهم.!

إن بعض العقول قاصرة عن الفهم، وتعاني من أزمة وعي، ولا تستطيع إدراك كل ما يقال من حولها أو يعرض عليها، ومن ثم لابد للكاتب أن يُراعي قدر الإمكان عقول من يحدثهم، ولكنه إذا كان يملك ذلك ويستطيع النجاة من الحديث، فكيف يستطيع النجاة من القلم؟ وكيف له أن يتقى ظنونهم وحَرفيتهم أمام المداد المكتوب؟!

لابد أن التهمة ثابتة عليه ثبوت الجبال.! كذلك مما يزيد استيائي أن أكتب مقالا وأريد شيئا بعينه وجسمه ووصفه، وأؤكد عليه في السطور مرارا وتكرارًا، ثم يصر بعض القراء على نقيضه وتكذيبه.

وأذكر مرة أن شرطيًا، اتهمني بأنني أهاجم قتلى الشرطة وأرفض وصفهم بالشهداء، وكانت هذه تهمة غريبة لم أجنح إليها يوما أو تأتي في خاطري، والذي دفعه لذلك أنه قرأ لي يوما مقالا عن أنواع الشهداء وأصنافهم، بينت أن الشهادة ليست لفظا نمنحه لكل من شئنا ممن نحب من الناس، لأنها مكانة رفيعة القدر جليلة الأجر، وهي لله تعالى وحده،

وصادف كتابه هذا الكلام وقوع حادثة اغتيال لبعض العساكر والمجندين.

فما كان منه إلا أن ربط الاحداث ببعضها ربطة عميقة السوء، سحيقة التصور، وادعى بين الناس أنني ألمح بقتلى الشرطة، وأرفض أن يكونوا شهداء.. وصاحب ذلك بكثير من السباب والتطاول، بل تعدى هذا أن يطعن في قلمي وكتاباتي وموهبتي التي أشاد بها كبار الأدباء في مصر، وأجبرت قامات الثقافة فيها أن يقرؤوا لي، وقال قولته: ماذا يكتب؟ إنه يكتب هراء لا قيمة له ويأتي من هنا بكلام ومن هنا بحديث، ورغم هذا التجريح لم ألتفت إليه أو أعيره اهتماما، وكنت من قبل أظنه يعي قصدي ويفطن مرادي، وأخذت أِشرح له وأبين أن ذلك لم يكن قصدي، وأنه أخطأ فهمي، لكنني اكتشفت منه إصرارًا عجبا على تخطئتي حينما رد علي وقال: لا.. أنت تريد ذلك وتقصده، ولما وجدت نفسك قد انكشفت، أخذت تعدل كلامك في الفقرة الثانية.!

ما هذا الذي يقال؟

ما هذا الذي يحدث؟

وما الذي يجبرني على الانكشاف والتستر والتعديل، والقلم بيدي أفعل به ما أشاء، وأريد ما أشاء؟!

والحق أن هذا الموقف كان له دروس مهمة استلهمتها في طرحي للأفكار بين العامة الذين قد لا يحسنون فهمها أو يدركون أبعادها.. وهو

أن الصبر إذا لم يكن قرين قلمي فمن الأصلح أن أكسر هذا القلم ولا أكتب به مرة أخرى.

خطر السيرة الذاتية

كتب السيرة الذاتية من أبلغ الوسائل التي يمكن أن تخدعك، وتؤثر فيك، وهي نوع خطير من أخطر أنواع التلاعب بالعاطفة وخداع العقل.. فهي من هذه الأشياء التي يمكن لها تجمل القبيح، أو تجعل الباطل حقا، والخطأ صوابا.

وكل من يلجأ إلى السيرة الذاتية، يلجأ للكلام العاطفي والاسلوب النفسي، ومحاورة النفس والوجدان، ليجعل القارئ يعيش مع صاحب السيرة، ويدخل عالمه، متأثرا بحاله وهو يشاركه أفكاره ومراحل عمره.. وإنك لتعجب من بعضهم، وهو يدافع عن طاغية، أو ظالم، أو عربيد، أو منحل أو ملحد، ثم تتساءل: ألم يقف هذا المدافع على أفكاره ومواقفه، وبلاياه التي أظهرها وأعلنها أو تحدثت بها كتبه؟

ثم تكتشف في النهاية أن السر في هذا التأييد والمناصرة، سببه الوحيد أنه قرأ مذكراته وتفاعل معها، وتأثر بأسلوبها وحكيها ورواياتها.. واجب على المثقف الواعي ألا ينخدع بهذه المذكرات، وأن يتنبه لسحرها وقدرته في التأثير والعبث بالعقل والعاطفة.

مازلت أتذكر هذا الصديق، الذي وجد في مكتبتي يوما كتاب كفاحي لهتلر، فاستعاره وأخذ يقرأه، وبعد أيام وجدته مبهورًا بهتلر،

يحكي طفولته وأيامه، متأثرا بأفكار متحيزًا لمواقفه ورؤاه، تحول بأثر المذكرات، على النقيض من حال الرجل الذي نعرفه، والذي تسبب في هلاك ملايين البشر، وكان لعنة على بني الإنسان.!

ومن أبلغ وأذكى النصائح التي توجه للزعماء، أن يكتبوا السيرة الذاتي، لأنها من الوسائل المهمة في التأثير على عقول الشعب، وجلب عناصر التأييد والتعاطف، وتُشعر القراء من عموم الشعب على اختلاف أشكالهم وأنواعهم ودرجات تعليمهم وثقافته، أن قريبين جدا من هذا الزعيم، خبيرين بأحواله، منصتين له، لأن كل واحد منهم وهو يقرأ، يشعر أن الزعيم يخاطبه وحده.. وقد فعل هذا أنور السادات وتنبه لهذا الأثر، وفعل ذلك أيضا ملك المغرب الحسن الثاني.

فكان مما كتبا ذو تأثير بليغ على عقول وقلوب الشعبين.

أذكر كذلك أن انطباعاتي الأولى عن الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس كانت سيئة عنيفة، وكان فكري عنه لم يتعد كونه ذلك الأديب والكاتب الذي ألف لنا روايات السينما المنحلة، وشجع الشباب على التفلت والتبرج والسفور والتحرر المخل بالعادات والدين والقيم والتقاليد..كانت صورته سيئة جدا في ذهني وانطباعي، فلما قرأت كاتبه الذي أعدته الدكتورة الرائعة د.أميرة أبو الفتوح عنه تحت عنوان (إحسان عبد القدوس يتذكر) تغيرت فكرتي تمامًا حيث أظهرت الدكتورة أميرة جوانب مضيئة من حياة إحسان الإنسان قبل الكاتب، والسياسي الوطني

قبل الأديب الروائي، ومازالت إلى اليوم متعاطفا بشدة مع شخصية إحسان عبد القدوس بسبب هذا الكتاب، حتى لو رأيت أحدهم ينتقده ويقسو عليه في الكلام، حاولت أن أجره إلى جوانب مبهرة من حياته الذاخرة بالنضال، ليفطن إلى أن الرجل كانت له مفاخر في حياته لابد للمنصفين أن يتذكروها ويروووها.

حينما أذيع مسلسل الجماعة في مصر، وأخذ يعرض سلبيات حركة الإخوان المسلمين، لم يتبه القائمون على المسلسل لأمر خطير، يمكن أن يأتي بنتيجة سلبية قوية عكس ما يريدون، وهو وجود مذكرات حسن البنا نفسه، لم يتنبه وحيد حامد لخطر مذكرات حسن البنا التي يمكن أن تضرب المسلسل وأحداثه في الصميم، فبعد إذاعة المسلسل لحياة مؤسس هذه الحركة، سارع كثير من المثقفين، إلى اقتناء مذكرات حسن البنا، والتي كانت تحت عنوان (مذكرات الدعوة والداعية) ومن أخطاء وحيد حامد الفادحة وغير الذكية، أنه عمد في كل حلقة، أن يبرز وكيل النيابة وهو يقرأ هذه المذكرات، وتأتي الكاميرا على صورة الغلاف، مما دعا كثير من المثقفين والمعنيين بالأمر أن يقتنوا هذا الكتاب، الذي صور لهم وحيد حامد أنه كتاب خطير، وفي مستوى من الخطورة يعادل كتاب، بروتوكولات حكماء صهيون.! وكان الكارثة السلبية، حينما سارع القراء لكتاب المذكرات، ليجدوا حياة ومواقف مؤثرة، استطاعت أن تخلق فيهم روح المعارضة السافرة للمسلسل وأحداثه.

ثم ناهيك عن مذكرات يكتبها حسن البنا نفسه، كيف يكون شكلها وأسلوبها، وطريقة عرضها، وهو الذي اشتهر عنه قوة التأثير التي تفوق السحر.؟

ومن هنا أرى وأعتقد، أن الإقدام على قراءة أي مذكرات، هي آخر مراحل الثقافة التي يقدم عليها القارئ، حينما يكون مسلحا بالوعي الكافي، والثقافة النافذة والمحيطة، حتى لا يقع أسير الشباك العاطفي لأي مذكرات مكتوبة.

كنت في بداياتي قد وقعت يدي على مذكرات الصحفي الكبير موسى صبري، (خمسون عاما في بلاط صاحبة الجلالة) الكتاب كان مؤثرا وشيقا، ولكني مع رواياتي لكثير من مواقفه، كنت أصطدم برأي كثير من القراء، الذين كانوا يرونه لسانه السلطة في ذلك الوقت، وعنوانا للتملق والتزلف والنفاق، وكنت حينما أسمع هذا الكلام، أتعجب وأستغرب وأندهش، لأنني أسير مذكرات، أظهرت لي معنى الإنسان الكامل، في شخص موسى صبري، الذي كان نموذجا للعفة والضمير، والاحساس العالي، والصدق مع النفس، والإخلاص في حب الوطن.

وبعد فترة كبيرة من إدمان قراءة المذكرات والسيرة الذاتية للكثيرين، تعلمت أن ألغى عاطفتي في الحكم على الأشخاص من مذكرات هم، ليبقى الفكر وحده سيد الموقف، أفكارهم ومواقفهم

ورؤاهم للأحداث، هي وحدها الميزان الذي يُظهر حقيقتهم، وهي الشمعة التي على ضوئها، نتبين خطاهم، ونعلم أين ساروا وكيف توجهوا.؟

حكمة تعلمتها!

ستظل تلك الكلمات التي حدثني بها مدربي في فن كتابة المقال، حكمة خالدة لا يمكن أبدا أن أنساها أو أتغافل عنها، مهما طال الزمان وتمددت الأيام، حينما قال لنا في دورته: (اتعب على مقالك حتى لا تضحك القراء عليك!)

ولما سألناه عن معنى التعب المقصود قال: أن تذاكر وتتحقق تتصفح وتراجع وتبحث عن المعلومات اللازمة، حتى تصقل مقالك فيصير قويا دسما هادفا معبرا مفيدا.

ومن يومها وأنا لا أكتب مقالا، حتى أحاول التحقق من كل شيء فيه، وأغرق نفسي في البحث، حتى أجمع فيه ما يصقله ويجلب معه احترام القارئ وتقديره، وهو يشعر أنه يستفيد ويضيف إلى معارفه كل يوم شيئا جديدا، ويجنبني ضحكه وسخريته.

وربما أحيانًا أذكر بعض المعلومات والاستشهادات والدلائل دون الرجوع إلى مصدرها، فيتوهم بعض القراء المشاغبين أنني لا أعرف مصدرها ولا من أين نبعت؟ فيبادر بسؤاله ظنا منه أنني سأقع في دائرة الاحراج، ولكنه لا يلبث إلا قليلا حتى آتيه بالمصدر المطلوب الذي جاء

منه هذا الاستشهاد أو ذاك الدليل.. كل هذا بفضل ذلك المدرب الذي عرفنا هذه الحكمة، ورهبنا من نتائجها المخيفة، وهي سخرية الناس وضحكهم على على الكاتب.

شيء كبير ومحبط ويصيب صاحب القلم باليأس العنيف، حينما يضحك عليك قارئ، أو يتندر بجهلك وقلة معرفتك، ربما يضيف إليك ما خفي عنك، فذلك مقبول ومتاح، لأن العلم ليس له كبير، أما أن يُخطئك ويبرز جهلك وتقصيرك في المعرفة والبحث والدقة، فذلك مالا يطاق، وكذلك أيضا قد تكون هناك مسائل معقدة في العلم، لا يدرك المرء غورها، ولكنه يتحدث عنها ويخطئ، ويأتي هناك من يلفته إلى هذا الخطأ، فهذا أيضا له عذره المقبول لوعورة المسألة، وخفاء دقائقها على أولي الالباب، لكن أن تكون أمور بدهية وثوابت معلومة، وتتجنى عليها أو تولغ فيها بالغلط والخطأ، فهنا لا عذر لك، حين تستحق العقاب الكبير الذي نبه عليه مدربنا، وهو ضحك القارئ عليك!

بل المصيبة الكبرى لهؤلاء الذين يجعلون من أنفسهم قادة التنوير ودعاة التحضر، وهم يوغلون في العداء لدينهم وملتهم وتراثهم ويهاجمون ثوابته ويحطون من قدر رموزه، فتراهم يهرفون بما لا يعرفون، ويتأولون نصوص الدين عن جهل كبير، ويقرؤون في كتبه وهم يتوقون للشبهات، بلا دراية أو فهم، بل يأتي بعضهم ليجتزئ النصوص، ولم يتابع نصفها الثاني، الذي يرد ما تريب منه واستهواه في النصف الأول على طريقة (ولا تقربوا الصلاة).

وهكذا يغطون في جهل عميق وضلال سحيق، ولو أنهم كلفوا أنفسهم السؤال والاستفسار، لانجلى لهم الحق، وتبين لهم مالم يكونوا يفقهون!

ونأسف كثيرا لتمادي كثير من هؤلاء في طريقهم، لأن صوتهم وأقلامهم تجد لها من يروج إفكها في الصحف والفضائيات، بل نأسف أكثر لأنهم في أمة لا تقرأ، ولا تعرف حياة البحث، ومن ثم يسهل خداع الناس وتشكيكهم فيي دينهم وثوابتهم، مستغلين ضعف الصوت الإسلامي ومنابره التي لا تقاوم هذا التضليل، ولا تشغل صوتها به.

وإذا أردت أيها القارئ أن ترى نموذجًا تضحك عليه من كاتب له اسم رنان، أو حضور مكين، ويعد نفسه من قادة التنوير، ودعاة العقل والتحرر والفكر والمعرفة، فلا يسعنا إلا أن نذكرك بهذه الحادثة التي جرت بين المفكر الكبير دكتور محمد عمارة والكاتب العلماني حسين أحمد أمين، حينما تناول الثاني حديثا مبتورًا عن الصحابي الجليل سعد ابن أبي وقاص، فانتقص من قدره، وحط من مكانته، وشوه صورته، وهو من هو سبقا وبلاء وجهادا، بل من العشرة المبشرين بالجنة، وتعده الدنيا من أعظم الفاتحين والقادة العسكريين حين كتب الله علي يديه زوال دولة الفرس التي لم يقو عليها أحد على مر التاريخ، حتى الاسكندر الأكبر نفسه، لم يستطع أن يقهر عاصمتهم المدائن التي تهاوت خائرة تحت ضربات سعد وسيفه وجيشه، لقد حوله حسين أمين إلى رجل لا يعدل

إذا قضى، ولا إذا أقسم بين الناس؟! بل جعله أيضا لا يحسن الصلاة، ثم جعل مرجعه وعنوانه في ذلك حديثا منقولا برواياته وعنعناته، ليقول لنا: هذا هو سعد، وهذا هو الرمز وهؤلاء هم الصحابة؟! ومن تراثكم وليس من كلام مستشرق أو متغرب! وكان هذا الحديث الذي ساقه للناس حتى يفسد في تصوراتهم ووجدانهم صورة صحابي من أعظم الصحابة، حيث قال: عن جابر بن سمرة : شكا أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فقالوا : "إنه لا يحسن أن يصلي، فبعث عمر رجالا يسألون عنه بالكوفة فقيل لهم: أما إذا نشدتمونا بالله، فإن سعدا لا يعدل في القضية ولا يقسم بالسوية ولا يسير بالسرية" وأغلق الأقواس وانتهى الحديث الذي يقدم للمسلمين أسوأ صورة، وأسوأ شهادة قدمها أهل الكوفة وأدلوا بها في حق صحابي من كبار الصحابة، لقد كتب النص دون أن يثبت أي مرجع حتى يصعب على الباحثين التحقق من الأمر.

إلى أن لقيه الدكتور عمارة في مكتبة الشروق، وسأله عن المرجع الذي جاء منه بهذا النص فقال له: طبقات ابن سعد، ولما رجع عمارة إلى مكتبته، قلب في الطبقات عن كل ما يخص سعدًا فلم يجد شيئا، ولكن الحمية لم تدع له سبيلا إلى النوم، فظل يبحث في فهارس الأحاديث – وكان ذلك قبل ظهور الانترنت وصفحاته البحثية التي تسهل الوصول إلى أي شيء– حتى وجد النص في عند الشيخين وفي موطأ مالك ومسند أحمد، وكانت المفاجأة المدوية المذهلة، بل كانت الفجيعة كما يقول

الدكتور عمارة في أمانة وعدالة حسين أحمد أمين، حينما كان النص الحقيقي شيء آخر غير الذي أورده واقتص واجتزأ منه ما يحمل على الشبهة ويبعث على النقيصة، وكان الحديث الكامل على هذا النحو، عن جابر بن سمرة، رضي الله عنهما .

قال: شكا أهل الكوفة سعداً، يعني: ابن أبي وقاص – رضي الله عنه – إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فعزله واستعمل عليهم عمارًا، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي.

فقال: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أخرم عنها أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين، وأخف في الأخريين، قال: ذلك الظن بك يا أبا إسحاق، وأرسل معه رجلاً – أو رجالاً – إلى الكوفة يسأل عنه أهل الكوفة، فلم يدع مسجداً إلا سأل عنه، ويثنون معروفًا، حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقام رجل منهم، يقال له أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة، فقال: أما إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً، قام رياء، وسمعة، فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن، وكان بعد ذلك إذا سئل يقول، شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد .

قال عبد الملك بن عمير الراوي عن جابر بن سمرة فأنا رأيته بعد قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق فيغمزهن.. متفق عليه

ويبقى السؤال الآن هل كان حسين أمين جاهلا فعلا بالنص، أم أنه تعمد التضليل والتلبيس مستغلا جهل الناس؟

يقول الدكتور عمارة: "حالة من الفسوق الفكري قدمها أمين ليهدم رموز الاسلام، وليهدم أبطال حضارته، وليجرد الأمة من سلاحها وهي تخوض حربًا ضروسًا على العديد من الجبهات!" لكنني مع استنتاج الدكتور عمارة لمحاولة أمين وتفسيره الدقيق لجنايته، والذي أوافقه فيه بالطبع، ولا أنسى أهم شيء وهو أن تعرية عمارة لفعلة صاحبنا أضحكتني عليه وأضحكت كل من قرؤوا سقطته، وهي الحكمة التي علمني إياها أستاذي في فن كتابة المقال.!

فليحذر كل كاتب أن يضحك عليه القارئ، لأنه شعور مر، وإحساس كئيب.!

لا يكادون يفقهون حديثا

ما للقوم يخاصمون فهومي، ويقفون منها موقف المعارض الرافض المحتج، هل لأنني لا أحسن التعبير؟ أم أنني لم أستو بعد في نظم الكلمات؟!

لم أسارع أبدا لأتهم أحدًا بالجهل أو قلة الفهم، وإنما إذا لمست الاعتراض، لا أنظر إلا لنفسي، أتفقد فيها مواطن الخلل، وأتلمس مواطئ الضعف، وأتبصر مكامن التقصير ومنابت العلة، ولكني سرعان ما أجد تعبيري سليما وقصدي موفقا، إذن فلننظر إلى الساحة الأخرى من فهوم الناس ومقاصدهم الخاطئة التي استلهموها من كلماتي وطرحي.

كتبنا ننتقد شهادة الشيخ رشيد رضا في نعيه لجرجي زيدان، فظن الناس، أننا نهين رشيد ونطعن فيه ونبخسه حقه ونهيل التراب على مقامه وكيانه، وما كان ذلك أبدا ليكون، فرشيد هو إمام الدنيا ومن أعاظم رجالات الإسلام، وأعده في نظري رائدا ومجددا أحبه من عميق قلبي، وكان له تأثير في نفسي حينما قرأت قصة حياته، وطريقه العلمي والروحي، لكنني أحب الحق دومًا فوق كل ما أحب، وأؤمن بنظرية النقد الذاتي، التي تعلمناها من روح البحث والتقييم النزيه، فليس معنى

أنني أحبك أن أسلم بكل ما تطرح، وأقدس كل ما تنطق به، بل يصاحب حبي لك، ميزان الحق الذي أقيم به الأمور، وحرية العقل التي تسمح لي أن أبدي رأيي وأنتقد ما لا يروقني، كل هذا يحدث ويكون كائنا قائما مع حبي لك وتقديري لقيمتك.

هكذا كتبت وهكذا أردت..

الأمر بسيط جدا جدا، لكن بعض الناس يفتقدون ثقافة الحرية في الفهم الثقافي، وقد تعودوا في فهمهم للحب أنه لا يعني إلا التسليم والرضا بكل شيء يقوم به المحبوب، وأن أي اعتراض أو نقد، إنما يعني في الحقيقة الكره والعداء، وتلك إذن قسمة ضيزى.!

ثم كتبت مقالا تاليًا بعنوان فاروق يقرأ، ولم يكن الكلام إلا كلاما ثقافيا بحتا، ولم يكن أبدا يرمز أو يرمي لمدح فاروق وتفضيل عهده وحكمه على عهد من تلاه، وقلنا بأن الرجل كان له متابعة للصحف وقراءة للمقالات، وتقدير جم للأدباء والمفكرين للدرجة التي كان يمنحهم فيها رتبة الباشوية، فظن الناس أنني أعظم فاروقا، وأشيد بحكمه وعهده، خاصة حينما ألمحت لشيء من المقارنة بينه وبين خلفه الذي أذاق مصر كلها ويل الهزيمة والعبودية، فكانت هذه المقارنة هي العلة التي أسرت عقول الناس، وشغلت حماسة ردودهم بعد أن أغلقت أفهامهم، فلم تبصر مغذى المكتوب ولا المعنى المقصود، واندفعت في

ظنونها تدافع عن ناصر وأنه كان العزة والكرامة والكبرياء، والله يعلم وعقلاء الأمة يشهدون أنه ما كان إلا عارا على مصر وعهد ذلة كانت فيه صاغرة.

المقال الأول يحمل في أكثر من موطن فيه، إشادة لامعة برشيد ومكانته العلمية وقيمته الدعوية وقامته الاسلامية، ومع ذلك لم تنتبه الأعين المعترضة لهذه الإشادة، لأن ظنونهم سلكت طريقا لا ترى غيره، ولا تُبصر سواه.. والمقال الثاني يحمل إدانة لفاروق وأنه كان طاغية منحلا، وإقرارا صريحا بأن المقال لا يعظمه أو يرفعه، وإنما هي لمحة ثقافية دفعه إليها مكانته كملك يحب أن يعرف ما يكتب وما يدور حوله.

فلماذا إذن تنحرف أفهام الناس يمينا ويسارا، هل هو حبهم للنقد، أم قلة فهمهم وسوء ظنهم؟! أم إيمانهم بأن النقد ينافي الحب؟!

لماذا لا يقرؤون بتمعن ويفقهون ما توحي به السطور التي لم تخرج أمام أعينهم في هيئة طلاسم أو رمزيات تحتاج لعلماء الآثار كي يفكوا إشكالها ويظهروا مخبوئها.!

رجاء اقرؤوا واصبروا وافهموا وتأملوا.

السلفيون يطفئون الابداع

الفكر السلفي في نظر بعض السلفيين له نكهته الخاصة، عن الفكر السلفي في تصور ومنهج أي جماعة إسلامية أو اتجاه ديني آخر.

فالجميع ينبثق من هذا السلف العظيم وينتسبون إليه، لكن السلفية المعاصرة لها كما قلت تذوقها الخاص.. فمن معالم التصور السلفي المعاصر عند بعضهم، أنه تصور مأفون منغلق قاتم متقوقع، يُعطي صورة مرهبة ومرجفة عن الحياة في ظل الإسلام، فهو يقتل الابداع ويقف في وجه أي تطور أو ما يستأنسه الناس من حياتهم، بحجة أن كل شيء لابد أن يكون لله وبالله.

منذ أيام رفض صديق لي قراءة السير الذاتية والتراجم لبعض الأدباء والمفكرين، بحجة أنها مضيعة للوقت وسفه لا يرضي الله تعالى، ومن قبله رأيت رسالة يعرضها صديق أديب، وقد وجهها له سلفي متشدد، يحذره فيها من كتابة القصص والروايات الأدبية، لأنه منحى بعيد عن هداية الله تعالى، والصواب أن يعكف ليل نهار على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

والحق أن وجود هذه الجملة العظيمة (كتاب الله وسنة نبيه) تضع الكثيرين في حرج كبير، فلو هو دافع عن موهبته أو رغبته وترويجه لنفسه، لاتهمه الخصم أو اتهم هو نفسه، بأنه يصد عن كتاب الله وسنته نبيه، والحق أن هذا الموضوع حرج جدا، وقد ترددت كثيرًا قبل الكتابة فيه، لكنني مؤمن إيماني القوي أن الاسلام يسع الحياة بكل مباهجها وفنونها، بل يسع كل رغبات الإنسان وييسر ويتيح له فعلها ما دامت في الخير والبر، هو ما منح قلمي الجرأة على خوض هذا الموضوع ونقاش وصد أدعيائه.

ما المشكلة أن أكتب رواية أو قصة تحمل كثيرا من المبادئ والقيم التي تُلهم الناس الخير والانسانية وتعلمهم كيف يكونوا إيجابيين مسالمين هادفين نافعين؟

سيخرج السلفي المعقد ليقول لي: إن في القرآن الكفاية والهداية... وأنا أعلم ذلك، ولكننا هنا نتحدث عن موهبة في جوف هذا الكاتب وذاك المؤلف.. لابد له أن يظهرها وينميها ويعبر عنها بإبداعاته، فما الضير من ذلك والمانع.؟! في حياة كل إنسان تجارب ومواقف وإفادات وعجائب، ما المانع أن أقرأ فيها لأتعرف على تجاربهم وأزيد من معارفي وأملأ حصيلتي بتجارب الآخرين؟ حتى إذا تحدثت يوما جمعت ألوان الحديث المختلفة بجوار النمط الديني.

أذكر أن الشيخ الغزالي قال مرة: إنني حينما خطبت للناس في المسجد تحدثت عن كل شيء في الدين، ولم أجد نفسي إلا أن أحدث الناس عن أمور أخرى فحدثتهم عن أينشتين والنظريات العلمية.

ربما يمكن لك أن تعيب علي لو انصرفت في هذا التيار منجرفا لاهيا، وأنا بعيد تمام البعد عن كتاب الله وسنة نبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه، لكن الحياة لابد فيها من التنوع والتزود والمعرفة، وفرق كبير بين كتب الهداية وكتب المعرفة، والقرآن الكريم على ما فيه من المعارف العظيمة، فهو كتاب هداية في المقام الأول، لكن المعرفة لها مشاربها المتعددة التي تستهوي كل فرد فينا بلون مختلف من ألوانها.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا: "روِّحوا القلوبَ ساعةً بساعةٍ "

ومما ينسب لعلي كرم الله وجهه: " روحوا عن انفسكم ساعة بعد ساعة فان القلوب إذا كلت عميت"

ويقول كذلك: "إن للقلوب إقبالا وإدبارا ونشاطا وفتورا، فإذا أقبلت بصرت وفهمت، وإذا أدبرت كلت وملت"

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أملحونا وروحونا.. يقصد أرووا لنا بعضا من ملح العرب وطرائفهم، لكي ترتاح نفوسهم بشيء من الطرائف تجعلهم يبتسمون أو يضحكون.

لا أعرف لماذا أشعر وأنا أكتب هذا الكلام، أنني أتجنى على القرآن الكريم أو أنني أصد عن سبيل الله تعالى، وأنني أنحى منحى الشياطين، ولعل هذا من آثار تهويل هذا التيار الذي أوهمنا أن هذه السُبل فسوق عن منهج الله، لكنني مؤمن أن أي موهبة وأي إبداع يمكن أن أجعله نصرًا لله ولدينه، حينما أسخره لنشر القيم والتقاط المعارف التي تخدم ديني وتدعم رسالتي.

سر يمينا ويسارا واصعد شمالا وجنوبا، فمادام الله تعالى في قلبك، فلا تخشى شيئا وأنت على الطريق القويم.. اقرأ ما شئت من القصص والروايات واروي غلة مواهبك بالكتابة في الفنون والعلوم، لكن ابحث دوما في عقلك كيف يمكن خدمة الله تعالى ودينه بما تهوى وما تبدع.؟

وهنا فقط تستطيع أن تخرج من تخلف هذا القطاع الذي يُظلم حياتنا بفكره المنغلق الذي يريد عزلنا عن الحياة كلها.

ولعل هذه هي المشكلة التي عانت منها التيارات الدينية قديمًا، حينما تفوق الشيوعيون والعلمانيون في مجالات الأدب والفن والرواية والاعلام، يجارون الوضع والتوجه العالمي، بينما الإسلاميون متخندقون في الكتاتيب عاكفون على الحواشي.. العالم من حولهم يتسابق في نطاح مستعر لقيادة الدنيا، وهم في منطقة الذيل متخاذلون متأخرون.

الاخرون تصدروا المناصب والمواقع، وهم ضعاف منزوون منعزلون، حتى توارى صوتهم، واحتجب نداؤهم، وجلبوا الخسارة لدينهم.

رجالنا أعظم من رجالهم

التغريبيون الذي نشأوا في بلادنا لا يرون لأمتهم أي فضل أو سمو أو تاريخ تليد، يمكن أن يتباهوا به، أو يوازن ما يفتنهم من حضارة الغرب.

إن لديهم إحساس داخلي بالعار والخزي، لأنهم ينتسبون لأمة العرب والمسلمين، وفي نظرهم كما صور لهم وظنوا ذلك، أنها أمة متخلفة متراجعة تخاصم العلم والفكر والنور والإنسانية.!

ساهم الجهل بشكل كبير في رسم هذا التصور المغلوط، فالقوم لم يقرؤوا ولم يدرسوا ولم يطلعوا على شيء من عظمة أمتهم ورجالها وتاريخها ومجدها، في كل المجالات والميادين.

وإنك لتتعجب من أحدهم قرأ في كل شيء وعن كل شيء إلا الإسلام، ثم تجد الإسلام نفسه أول ما يفتي ويتكلم فيه بعقله أو بجهله.!

لقد وقف كثير من فرسان العربية ومفكريها أمام هذه الموجة التغريبية التي تشكك الأمة في تراثها، وتُضعف إيمانها بهويتها، وأدركوا خطورتها لو وقفوا مستسلمين دون أن يشمروا عن ساعد الجد، ليبرزوا تميز حضارتهم وسمات أمتهم وروعة رجالهم.

الانبهار بالغرب والغربيين ساق المتغربين أن ينبهروا بهم في كل شيء، ورفض تلك الدعوة التي تنادي أن نأخذ عنهم ما يناسبنا ونترك مالا يناسبنا، انبهروا بهم في تقدمهم ومدنيتهم وملابسهم ومآكلهم وطبائعهم، ومساكنهم وكلامهم وأدبهم وثقافتهم، حتى في ماديتهم وانحلالهم، وكان من أبرز ما أعجبهم وحرص الغرب نفسه على إبراز هذا الجانب هو عبقرية رجالهم، حتى يصوروا للعالم كله، أن الصورة الكاملة للرجل زعيما ومفكرا ومخترعا وبطلا وزاهدا وعالما وأديبا ومفكرا ومصلحا وقائدًا، كانت في رجالهم الذين أتوا بخوارق السجايا التي لم تعرفها نفوس الرجال في كل حضارات الدنيا.

لقد أغرقوا بلادنا بسيرة رجالهم وتواريخهم وأعمالهم وبطولاتهم المترجمة، حتى صار القراء في الأجيال الماضية، لا يعرفون من أعلام الماضي إلا أعلام الغرب، وهو ما دفع عباس العقاد حينما لمس المنحدر، أن يؤلف سلسلة العبقريات ليقول للدنيا كلها: إن رجالنا أفضل من رجال الغرب، وأسمى وأرقى وأعلى شأنًا وأحسن سيرة وأجمل تاريخا.. كانت عبقريات العقاد تهدف في غرضها كشف الحقيقة، ورد هذه الموجة العاتية من تأليه رجال الغرب، ومحاولة لبث الثقة في نفوس العرب والمسلمين ليعلموا أنهم أجدر من الغرب في هذا الميدان.. ميدان العظماء.

لم يكن العقاد وحده من عملوا على هذه الخريطة، وإنما كان هناك جنود كثر على هذا المنوال، لم يتوانوا جهدًا في تزكية تراثنا وإبراز معالم

العظمة في رجالنا، وكان من هؤلاء أحمد زكي باشا شيخ العروبة، الذي كان له الفضل في إحياء التراث العربي بعد عقود من الضياع والاندثار.

كان الرجل بعد عميق بحث، وتوغل قراءة ودرس، تبين له عظمة العرب وتفوقهم في كثير من السمات، وسبقهم في كثير من الأعمال، وكان رحمه الله لا يترك مناسبة يتحدث أحدهم فيها عن فضل الغرب، حتى ينبري له بخطأ ما ذكر ويبرز له أن العرب كان لهم الفضل والسبق عليهم.

وكان من هذا رده على ما جاء في الصحف من أن المسيو بونكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية، أثناء زيارته لعاصمة الانفليشين أي لوندرة، استقبل عشرين وفدا من طوائف الانجليز ورجالاتهم المعدودين، وكلهم قدم له خطبة للترحيب بمقدمه إلى بلادهم، فأجاب كل خطبة بعبارة من الشكر تخالف ما أجبا به الأخرى.

وهنا أسرع زكي باشا إلى نشر فصل كامل في جريدة فرنسية تصدر في الإسكندرية، وهي جريدة النوفيل، بين فيه سبق العرب في هذا الميدان، وأن الوزير ابن زيدون، فعل أكثر من هذا، فيما أورده ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة في محاسن الجزيرة، أي جزيرة الأندلس، فقد روى أن الوزير كان قائما في جنازة بعض حرمه، والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم، فما سمع يجيب بما أجبا به غيره، لسعة ميدانه، وحضور

جنانه، قال الصفدي: وهذا من التوسع في العبارة والقدرة على التفنن في أساليب الكلام، وهو أمر صعب إلى الغاية، وأقل ما كان في تلك الجنازة وهو وزير ، ألف رئيس مما يتعين أن يشكر له، فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر، وهذا كثير إلى الغاية.

ثم ذكر زكي باشا أن عبقرية ابن زيدون، تفوق ما فعل الرئيس الفرنسي، فقد كان ابن زيدون في عزاء وفقد وقلب مكلوم قد لا يسعف عقله بالتفكير، أما الرئيس الفرنسي ففي موقف تهنئة وهو فرق كبير بين الموقفين، ولم يكتف زكي باشا بما أورد، فقد اندفع ليذكر شواهد أخرى في نفس المجال لعباقرة العرب الذين فعلوا من هذا الفعل، فكانت سابقة للعرب على غيرهم، كالحريري والخطيب بن نباته، والصلاح الصفدي.

لقد ساق زكي باشا هذه الشواهد كما صرح لأولي النهى من الإفرنج الجاهلين أو المتجاهلين، والمصريين المتفرنجين، ليعلموا أن في اللغة العربية كنوزا لمن يطلبها، وذخائر تجعل لها ولأهلها فخرا باقيا.!

إن القوم يباهون الدنيا بالحديث عن قادتهم العسكريين، ويصدعوننا كل حين بالإسكندر وفتوحاته، بينما يأتي سعد بن أبي وقاص ليحقق في دنيا الفتح والقتال، مالم يحققه بطلهم الكبير، إذ يُعد سعد أعظم قائد عسكري عرفته الدنيا، حينما تحطمت على يديه أعظم قوة في العالم، وزلزل عرش دولة كبرى واجتاح عاصمتها وصدع أركان عرشها، وهو مالم يستطع الاسكندر أن يحلم ببلوغه.

زلزال آيا صوفيا

تابعت بدقة ما يكتب من الآراء حول تحويل فتح آيا صوفيا مسجدا للمصلين، ولا يسعني إلا القول بأنني وجدت جهلا كبيرا وممجا بالتاريخ والواقع، كما وجدت افتراء في الحكم والفهم والتقويم.! بل دعني أقرر لك في وضوح وصراحة أن ضعف الإيمان بالله وقضية الإسلام، كان باديا في كثير من الآراء، متخفيا تحت آراء ومسميات وفلسفات فارغة ليست من الحق في شيء.

ويمكن هنا أن أقول لك: فرق كبير بين من يتعامل مع الغرب بالنية وصلابة المواقف، وبين من يتعامل بالانبطاح والخذلان وروح الهزيمة، ويستجدي رضاء الغرب المسيحي الصليبي الذي لن يرضى عنك أبدا، ما دمت تحمل في قلبك كلمة التوحيد بإخلاص وإيمان.. والحق أن مسألة أيا صوفيا ليست مجرد مسجد قد تم فتحه، بعد إغلاقه من أيام اللعين أتاتورك وتحويله لمتحف، وإنما جاء فتح آيا صوفيا للمصلين من جديد تذكير للغرب بالألم والطعنة الكبرى في تاريخ صراعهم مع المسلمين، حينما تهاوت حصون القسطنطينية تحت حراب الفاتح العثماني العظيم.

كما أعرف بيقين أن الكثيرين لن يستطيعوا أن يفصلوا الموقف السياسي من تركيا عن هذا القرار، فهناك من يسوؤهم ويفزعهم أو يغضبهم، أن تظهر قرارات في تركيا تحاول أن تجعل من زعيمها زعيما دينيا نصيرا للإسلام والمسلمين، حتى ذهب بعضهم ليقول له: عليك بتحويل الخمارات والحانات لمساجد، بدلا من تحويل أيا صوفيا، وهذا قول يحتاج في نقاشه إلى أزمان وأيام حتى يصل صاحبه لدرجة من الوعي السياسي والدعوي والواقعية ليدرك أن بقاء الخمارات وبيوت الليل، هما من أعاد فتح أيا صوفيا للمصلين، وهي معادلة لا أستطيع شرحها، لأنها خارج نطاق السطحية العقلية والفهم المأفون للواقع السياسي والمجتمع في تركيا.. أما الغاضبون لأنها تفسد الحوار مع المسيحيين، وتمنحه كل الملل الأخرى للعدوان على المساجد وتحويلها إلى كنائس، فهؤلاء لا يعلمون أي شيء عن التاريخ، ولا يدرون حجم المساجد التي اعتدى عليها الغرب وحولها لكنائس، ولو أنهم أدركوا مخلصين مخبتين، لعلموا وقالوا: إن رد تركيا جاء متأخرا جدا جدا جدا.

ورب ضارة نافعة، فمع هذا الهياج العالمي حول هذا القرار، إلا أنه قد كشف أشياء كانت مجهولة للكثيرين، فبقدر ما اتخذ البعض هذا القرار وسيلة لتحميق وتشويه الإدارة التركية، إلا أنه كشف صفحة أخرى حاول الكثيرين اليوم أن يشوشوا عليها ويشوهوا صورتها وهي حقيقة الفتح العثماني للقسطنطينية، انظر هنا وبتمعن شديد، فهذا الفاتح المنتصر الغالب بالسيف، الذي يتيح له هذا الغلب كل شيء، ويتيح له

استباحة كل شيء، يذهب للقساوسة ويشتري منهم الكنيسة، ويدفع ثمنها من ماله الخاص، ويسجل ذلك في عقد مبروم، تشهد عليه الأيام والأجيال ليصير أعجوبة الزمان ومضرب الأمثال..!

بل انظر إلى الجمال والمثالية، حينما اشترط عليه الرهبان في العقد إلا يزيل الايقونات المسيحية او يكسر الصلبان، وبالفعل كان يتم تغطيتها بالقماش طوال فترة عمل المسجد لمدة ٤٨١ سنة متواصلة.

قل لي بالله عليك: في أي زمان يحدث مثل هذا؟

ومع مَن مِن الشعوب الغالبية والمغلوبة حدث مثل هذا؟

لكنه الفتح العظيم الذي جسد الإسلام بمثاليته وإنسانيته وعظمته في احترام الإنسان وتوقير آدميته.

قفزة اللقطاء

مما لا شك فيه أن حيرة المرء الكبرى، حينما يجد شخصية مهملة لا قيمة لها ولا وزن ولا مقدار، في أي لون من ألوان الحياة، وفجأة تخترق عالم الصحافة والفكر والثقافة، وبلا أي مقدمات أو إرهاصات تظهر على الملأ بكتاب صاخب وصفحات مدوية تحدث ضجة كبيرة على المسرح الثقافي.

ثم ياليتها تتكلم في أمر عادي بما يتواءم مع بداياتها، ولكنها قامت أول ما قامت، لتضرب بالقلم في القمة وتوغل بسنه في الصميم، وتصل إلى النهاية التي يصل إليها من خلفوا وراءهم عقودا من الثقافة والبحث والجدال والنقاش.

وهؤلاء أسميهم اللقطاء، من يبيعون أنفسهم ويتاجرون بأسمائهم ليستخدمها أصحاب الفكر المعادي والمنحرف للهوية الإسلامية، ليكونوا لها ضربة في مقتل.. كان آخرهم تلك الفتاة التي فشلت في حياتها الزوجية، وبعد أن كانت فقيرة معدمة، أصابها تغير كبير في حياتها لا يعرف أحد سره وبُعده، فخرجت علينا بصورة أخرى غير التي يحكيها عنها جوجل، فتركت الفيوم وذهبت إلى القاهرة، ولا أحد يعلم أين ومتى وماذا حدث؟، لكن المهم أنها على رأي القائل تعرضت

لعمل(صنفرة وسمكرة) ودهان(دوكو) لوجها وجسدها، وكان لابد من استخدامها كامرأة للحدث الثقافي المبتذل، فما لبثت حتى خرجت علينا بكتاب يتبنى الدعوة أو يجدد الدعوة لخلع الحجاب.. يوائمها تلك الصُور الجديدة التي تظهر فيها ، بحالة من التبرج المفرط، الذي يجافي القيم الدينية.

لكن الملفت.. في امرأة لا علاقة لها بالثقافة والفكر، غير أنها تحب الظهور والعري، فانساقت لهذه الدعوة كأقصر طريق للشهرة المدنسة بالهجوم على الدين والمتدينين.

المرأة لم يقتصر تمردها الفكري على بُغض الدين وحده، وإنما تنامت لديها عقدة كبيرة نحو الفقر والفقراء وكأنها تهين مرحلة بئيسة عاشتها من حياتها بما تدل عليه ملابسها القديمة.. وكان تصريحها اللا إنساني، والذي يدل على نفس خربة لا قيم فيها ولا ضمير ولا رحمة ولا شفقة، ولا أي تأثير للثقافة والفكر، حينما قالت عن الضحايا المحروقين في محطة مصر: الأغنياء الوطنين الشرفاء أكثر شرفاً من الفقراء الذين يكرهون الوطن ويتعاونون مع الإرهاب" قالت هذا في الوقت الذي كانت مصر كلها تحترق كمدا وحزنا على المحروقين.

كنت أمام هذه القفزة الغريبة، ومن خلال استماعي للفتاة وحواراتها وطريقة عرضها وجدالها، جزمت بأن هذا الكتاب الذي

طلعت علينا به، ليس كتابها، ولم تكتب فيه حرفا واحدا، ثم تبين لي بعد أيام صدق حدثي وتوقعي، حينما أخبرني صديق بأن الناشر العلماني، هو من كتب لها البحث بتشجيع من طبيب العلمانية الشهير، وتحالفوا جميعا لإظهار هذه القنبلة المدوية والميلاد الجديد لهدى شعراوي.

ومن بعدها لم تكتب الفتاة شيئا كما لم يثبت أنها كتبت من قبل شيئا، وظلت إلى اليوم تعيش وتقتات على الكتاب الهاوي الذي كتبوه لها وصدروه باسمها.

وهذه الحادثة ليست الأولى في حرب الدين وقيمه وتعاليمه، ففي القرن الماضي كان كتاب الاسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق الذي حار الناس في نسبته وكان من جملة هذه الآراء.

لم يكن علي عبد الرازق كما ذكر الباحثون إماما مجتهدا، وإنما كان مجرد قاضي شرعي تلقفته قوى التغريب، فدعي إلى لندن لحضور حلقات عن الاستشراق والأفكار المعادية للإسلام، وأهدي إليه هذا الكتاب الذي وضع عليه اسمه مترجما للعربية، وأخذ الشيخ الكتاب فأصلح لغته وأضاف إليه بعض الأشعار والآيات القرآنية، وبعض الهوامش والفقرات كما يفعل السارق الماهر، من تغيير بعض ملامح المسروق، ثم أعلنه للناس على أنه من تأليفه، والجميع يعلم أنه من وضع المستشرق اليهودي مرجليوث.

والشيخ علي باعتراف الجميع ضعيف في تحصيل العلوم، ولم يعرف من قبل أنه كان متمرسًا في الكتابة أو متدربًا على التأليف، حتى يكتب بهذا الأسلوب ويتعمد الطعن في الاسلام، لم يعرف للشيخ من قبل مؤلفات أو مقالات قبل هذا الكتاب الذي هبط عليه بالبراشوت، اللهم إلا كتيبًا هينًا في اللغة وعلم البيان، وهذا هو كل إنتاجه بعد تخرجه من الأزهر بـ ١٤ عاما

وبعد أن طرد الرجل من الأزهر ظل منسيا مهجورا منقطعا عن الحياة العامة وباعترافه هو أن الكتاب قد كان لعنة عليه وجر عليه كثيرا من المشكلات.

وكان الطبيعي والمعهود لمن هذه دعوته وهذا فكره أن يملأ الدنيا صخبا ودويا، فيعرض ويناقش ويرد ويجادل، لكن ما حدث كان قفزة غريبة مدهشة تثير الريب والشك.

صدمة أم قناعة ؟

هزات عنيفة أو مواقف مؤثرة، أو قناعات عقلية، أو حقائق غائبة، هي التي تجعلك تُغير رأيك ومنهجك، وتُبدل مسارك، وتحول بُصلة اتجاهاتك الفكرية (١٨٠) درجة، إلى طريق آخر غير الذي كنت عليه.. من الخطأ الكبير أن تكون جاهلا وتبني رأيا! عليك أولا أن تعرف أنك جاهل وتقر بهذا الجهل وتبدأ في إزالته، وتقرأ وتُلم بمن تجهل أمره، حتى يكون حكمك صائبًا نابعًا من علم حقيقي عميق، وأكثر أخطائنا في هذه الحياة، بل أكثر ضلالاتنا، إنما ترجع لنسياننا أننا غالبا ما نكون جهلاء، واعتقادنا الواهم بأن عقولنا يمكنها أن تفتي في كل شيء، حتى ولو لم تتعلم أو تعرف وتهتدي إلى أي شيء.!

يقول الله تعالى: (وأهديك إلى ربك فتخشى)

أي أن الهداية التي هي التعلم والمعرفة، هي التي ينتج عنها التصرف اللائق والسليم وهو الخشية، والتي لا يمكن أبدًا أن تتوفر بدون معرفة حقيقية.

هناك علماء أو مفكرون تحولوا من مذهب إلى مذهب، ومن فكر إلى فكر، ومن اتجاه إلى اتجاه، حسب ما ظهر لهم من حقائق قبلتها عقولهم، وأفقدتهم كل ما كانوا يؤمنون به من قبل من مقومات الانبهار والاقتناع.

أما أعظم انقلاب فكري في تاريخ الإسلام، فكان في تحول أبو الحسن الأشعري إلى مذهب أهل السنة والجماعة، معلنا براءته من مذهب المعتزلة، بعد أن كان رأسا فيه والمُحاجج الأعظم عنه، بل بعد أن خدم الفكر المعتزلي ٤٠ عامًا، ويذكر السبكي أن السبب في تحوله يرجع لرؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام يأمره بنُصرة السنة ويقول له: (يا علي انصر المذاهب المروية عني، فإنها الحق) فتغيب عن الناس ١٥ يوما ثم ظهر على منبر المسجد معلنا توجهه الجديد وتحديه للاعتزال وطريقه وأنصاره.

وذكر السبكي: أن الأشعري كان بعد تحوله شديداً على المعتزلة إذ أصبحوا يفرون من مواجهته وجداله، وأنه كان يناظرهم فيهزمهم ويأتي عليهم جميعا.!

وفي حياة الكثيرين نجد هذا التحول الرهيب من اليمن إلى اليسار، وقد تعجب حينما تعلم أن هذا المفكر الكبير دكتور (محمد عمارة) الذي يعد صخرة عاتية في وجه أعداء الدين من التنويريين والمتغربين، كان ماركسيا ثم شاء الله أن يتحول إلى الصف الإسلامي، ويكون من أبرز المفكرين الذي فندوا مزاعم أعدائه وقهروهم بالعلم والفهم القويم.. والدكتور مصطفى محمود كان قد شط به الفكر في بداياته، حتى هداه الله واستقام عقله على إيمان كبير وعميق.

أما الذي كان تحوله قد قلب الدنيا وأحدث زلزالا كبيرًا وصدمة لشِلل الشيوعيين والعلمانيين في مصر، فهو تحول (خالد محمد خالد) الذي ابتدأ حياته بكتاب من هنا نبدأ، وكان مشبعًا بالفكر اليساري، فهللت له الدنيا وشغل الساحة الثقافية، لا لما في الكتاب من فكر ضد الإسلام، بقدر ما لأن خالد كان شيخًا أزهريا، أي أن الضربة جاءت للأزهر، خصمهم التاريخي، من أبنائه، وفي عرينه.. ولكن شاء الله أن يرجع خالد عن أفكاره ويؤلف كتابه الدولة في الإسلام، الذي أعلن فيه براءته مما كتب سالفا.

وكان تحول سيد قطب تحولا خطيرًا بين الأدباء، فقد كان مقدرًا له أن يكون مثل الحكيم أو العقاد أو شاكر أو بدوي، لكنه لما سافر إلى أمريكا ورأى متابعتهم للحركة الدينية في مصر وفرحهم بما يضرها، بدأ يفكر ويتأمل، وكان الإعلان عن إسلاميته الذي كان له صداه المدوي، كما كان مكسبًا للتيار الديني الإسلامي.

كما لا ننسى أولئك الذين تحولوا من دياناتهم للإسلام، نابعًا تحولهم من تأمل فكري، أو إعجاب عقلي، أو لموقف غير الموازين والمفاهيم.

أما الذين حدثت لهم هزة آلمت نفوسهم، وحولت مسارهم، ولم يكن هذا التحول ناتجا عن صيال فكري أو تأمل عقلي، فإن إحسان كان

نموذجا جليا لهذه الحالة، لقد كان (إحسان عبد القدوس) هو الكاتب الأول في مصر في عهد الملك فاروق، وبدايات عهد انقلاب يوليو (٥٢)، كان قلم إحسان ينفث نارا ولهيبا على خصومه، وكان ينتقد الجميع ولا يخشى شيئا من تهديد واعتقال أو قضاء، كان إحسان هو الكاتب الوطني الأول في مصر، وكانت كبرى القضايا الوطنية، لا تكون كبرى ولا تأخذ مكانتها العامة بين الناس، إلا حينما يتناولها قلم إحسان، كان يُهاجم الملك هجومًا قاسيًا، ويهاجم الانجليز هجوما عنيفا، وكان يهاجم النحاس باشا وحزبه هجوما أعنف، وكان الأخير يُسلط عليه صحف الوفد لتسبه بأقذع الشتائم والتهم.

وكان هذا في عهد فاروق والانجليز، فلما جاء عهد ناصر، كتب إحسان مقالا تحت عنوان (الجمعية السرية التي تحكم مصر) ينتقد فيه الضباط وأسلوب الحكم، فأمر عبد الناصر باعتقاله شهرا كاملا، ولقي في هذا الشهر معاملة سيئة، لم تكن تعذيبا ولم تكن جلدا أو حرمانا من الطعام أو سحلا على الأرض، وإنما كانت مجرد سجن انفرادي شعر معه إحسان بكل معاني الوحشة والغربة والألم في حياته، واستطاع هذا الشهر الكئيب أن يزلزل قلم إحسان، ويقتل حماسه للوطن في نفسه، فخرج من السجن وهو عازم أن يغير كيانه وتفكيره، ومن قبلهما يغير قلمه، فترك السياسة وعالمها واتجه إلى الأدب والروايات، ومن وراء الكواليس كان ناصر هو السبب في هذا التحول الذي أضر بالوطن، حينما أفقده قلما سياسيا نزيها شريفا جريئا قويا مثل قلم إحسان.

انتصر بأدب

ماذا لو رأيت أمامك من يسب وطنك ويشين بلدك، ثم وجدت قرينا لك وقد أخذته الحمية فثار عليه وسبه بأقزع الألفاظ، ورد عليه بفاحش الكلمات؟

لا شك أنك وقتها وكل من يرون هذا المشهد، سيحكمون على هذا الثائر أنه وطني حر، وفتى بارا أنجبه هذا الوطن.

لكنني والحق يقال إن لي نظرة أخرى وتقويم مختلف، فإنني حينما أرى الأدب ينهدم والخلق تتداعى ركائزه، لا قيمة وقتها عندي لأي شيء، فمن لا يدرك قيمة الأدب ومقام الفضيلة، لا يدرك معنى الوطنية، ويمكن لك باختبار يسير أن تبصر حقيقة هذه المشاعر الوطنية الزائفة، في نفس هذا الثائر الصفيق وأمثاله، فما عليك إلا أن تقول له: إن الوطن يحتاج منه أن يتبرع بجزء من ماله، أو أن يضحي في سبيله بجزء من جسده، ساعتها فقط سوف تملأ شدقيك بالضحك، وأنت تجلس متمددا على أريكة الساخرين، لأن هذه الثورة وهذه العصبية، ستتحول إلى رماد هش تعصف به حفنة يسيرة من الهواء، أو تُؤول كما وصف القرآن إلى هباء منثور.

الفضائيات اليوم تعج بإعلاميين، لا صنعة لهم إلا السباب واللعان، حتى تتخيل أن قلوبهم شعلة من الوطنية، ولكنهم كذبة أفاقين، لا تعنيهم إلا مصالحهم الذاتية، ومطامعهم الشخصية، ويحتاجون لجرعات ثقيلة من الأدب، حتى لا يلقوا في وجدان الناس هذا السقوط المريع.

لقد جاءني هذا الخاطر وأنا أقرأ كتاب فيض الخاطر للكاتب الكبير القديم (أحمد أمين) وفي مقالة من الكتاب تحت عنوان (صفحة سوداء) أخذ الراحل يستعرض ذلك التاريخ الذي شان مصر والمصريين، وذكر من أخلاقهم ما يعيب أهلها ويذم سكانها، وينسب لهم الجبن الدعة والرقة والمزلة، لقد كتب المؤرخون كلاما تخجل منه الأجيال المصرية في كل عقد وزمان، وأبهرني في الرجل أنه كان مهذبا حكيما عاقلا راشدا، كان يناقش كل الشبهات والتهم، ويرد عليها ويقابلها ببعضها، ويظهر نقاط تناقضها، لم يسب ويلعن، أو يطنطن بشعارات زائفة لا تعبر إلا عن عصبية جوفاء، لقد حفظ مقام كل عالم ومؤرخ، نسب لبلاده نسبة لا تليق، فمنهم ابن خلدون والمقريزي والسيوطي، وذكرنا في مقال سابق تاريخ ابن إياس، كلهم نسبوا الذلة والرقة والجبن لمصر والمصريين.

لقد رد أمين على ابن خلدون بأنه كانت فيه حدة الطباع، وكان ينظر بها للمصرين لأن طباعهم لينة، فحكم بطبعه على طبعهم، ورد على المقريزي بأن قوله متناقض حينما ذكر أن بعض المصريين أبطال شجعان،

وأن منهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور، فكيف إذن يستقيم الفهم، وتقبل القاعدة الشذوذ، فالقواعد التي وفرت الجبن والزلة والرضا بالضيم في المصريين لا تستثني أحدا.

ثم لفت أمين في رده إلى سحر التربية وقوتها وقدرتها على تغيير الطباع، فهي أقوى بكثير من قوى الطبيعة، كما رد فرية فرعون حينما قيل: إنه لما خرج، خرج معه أشراف القوم وعلية الناس، ولم يتبق إلا العبيد الأذلاء،، فقال أمين: إن المصريين قد نزل بين أظهرهم كثير من سادة الروم والعرب والترك، ذابوا في مصر واختلطوا بأهلها، فلم يغلب الذل العزة، وعهدنا دومًا غلبة الأعزاء.

ردود علمية، وحوارات منطقية، بعيدة كلها عن اللعن والسب، والتطاول وسوء الخلق، وتسفيه الخصوم.. ما أجدرنا أن نتعلم الأدب كثيرا، حتى تتوجه مشاعرنا وعواطفنا في سياج بهي من الأخلاق السامية.

ولله در شوقي في قوله:

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا** فليس وراءها للعز ركن.

احذروا هذا الكتاب

شيء محزن أن نرى بعض المتدينين المهتمين بالثقافة والمعرفة وهو يزكي كتابًا يطعن في دينه ويشوه صورة نبيه ورسالته، يكتب عن الكتاب وصاحبه وينصح القراء باقتنائه وقراءته ويؤكد على فائدته الادبية والمعرفية والتاريخية، بل يختم نصحه بأنه كتاب منصف للإسلام والمسلمين، يتناول تاريخهم بنزاهة مفرطة.. والله يعلم أنه مكر صهيوني وفخ صليبي..

رأيت هذا بأم عيني فكدت أبكي فزعًا من هذا الجهل القاتل.

كنت في قمة الانزعاج حينما رأيت هذا المنشور يظهر أمامي وهو يحرض الناشئة إلى المسارعة في اقتناء هذا الكتاب الكارثي الذي ألفه رجل من أخبث من أمسك بالقلم من كتاب الغرب.. والكتاب هو قصة الحضارة لويل ديورانت.

والحق أن الهوس بهذا الكتاب قد سرى واستفحل وتوهج بين نخب المثقفين، كل يسارع لاقتنائه، ومن ناله وحصل عليه يشعر في قرارة نفسه أنه جمع صيدا ثمينا وكنزا لا يقدر بثمن، ويعده البعض أعظم ما كتبته أيدي البشر، وليكن كذلك أو هو كذلك فيما كتب من مجالات

وفصول وأبواب شديد النفع للباحثين والدارسين ولا ننكر جدارته العلمية.. لكننا هنا لا يعنينا إلا الجزء الذي خص به الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم وسيرته، لنجد ويل ديورانت من أخبث الأقلام التي تعاملت مع الملف الإسلامي بدهاء منقطع النظير، فهو يدس السم في الدسم، ويتعامل بهدوء شديد، حتى ليخيل إلى القاري أنه كاتب موضوعي جدا، وهادئ جدا، ومنصف جدا للإسلام ونبيه وسيرته، بينما هو داهية خبيث ماكر يمرر بألفاظه الدقيقة العابرة ما يريده أن يستقر في عقل القارئ من شبهات تهدم قدسية الإسلام وتشين نبيه صل الله عليه وسلم.. ومن مكره الشديد بالقارئ أنه أحيانا يبدي لك إعجابه بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم ويمدحه، وأنت أمام هذا المدح لا يسعك إلا أن تنبهر وتعجب بأن مفكرا وكتابا عظيما مثل صاحب هذا الكتاب يعلن تقديره لنبينا الكريم، بينما الرجل من جهة أخرى يمرر أفكارا سامة لا تستطيع أنت أمامها أن تتنكر لها أمام هذا المدح الذي خطف عينيك وتركيزك.

فهو يحاول تصوير النبي صلى الله عليه وسلم في كثير من المواضع على أنه مصلح اجتماعي وزعيم سياسي نبعت دعوته من احتياجات عصره وظروفه، وهذا الكلام الخادع يقع في شركه كثير من المسلمين السذج ويعتقدون الرجل مشيدا بنبيهم، لتكون النتيجة أنه يعتقدون نبيهم مصلحا وزعيما من الزعماء والفلاسفة والمصلحين وليس نبيا يوحى إليه وجاء برسالة من عند ربه.. ثم يعمد الرجل بمكر وخبث

موارب إلى الطعن في شخص النبي صلى الله عليه وسلم وتصويره بصفات بشعة لا تليق كل ذلك بأسلوب هادئ لا تتخيل أنت معه أنه يهين النبي أو يعتدي على عصمته، فيصف النبي بأنه قتل امرأة وقتل شيخا تخطى المائة لأنهما هجواه، ثم يغمز في جملة ماكرة ما يريد أن يشين به الرسول الكريم حينما يقول: "وضمت صفية – وهي فتاة يهودية في السابعة عشرة من عمرها، كانت مخطوبة لكنانة– إلى نساء النبي"

وهو ما يترك أسوأ الانطباعات لدى القراء عن النبي الكريم، حينما يبصرون شيخًا جاوز الخمسين يتزوج من فتاة في السابعة عشر، كما أنها كانت مخطوبة لرجل قبله من بني جنسها.

" كل هذا فعله وهو يتصنع الهدوء ويتظاهر بالاتزان والانصاف ويخدع الناس بمثل كلامه عن براعة النبي في القيادة وشئون الحكم وفي التنظيم الاجتماعي، بل يصور النبي في صورة المتصابي والعصبي المزاج، والمريض الأعصاب والمصاب بالصرع "

فيقول عنه صلى الله عليه وسلم:" وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء واجبات الحب والحرب، لكنه أخذ يضعف حينما بلغ التاسعة والخمسين من عمره، وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم"

والرجل الماكر هنا يبيض صفحة اليهود ويبرئهم من تهمة اغتيال النبي ومحاولة قتله وتسميمه، وهي الواقعة الصحيحة التي شهدت بها

سيرته الشريفة، لكنه هنا يحابي اليهود وينفي عنهم هذه التهمة، ثم تظهر وقاحته وهو يقول: إن نشاطه وصحته قد أعاناه على مهمات الحب والحرب، فأي حب هذا الذي يريد هذا الكاتب المخادع أن يوهم القارئ به من أن الحب والرغبة في النساء كانت أولى المهمات لهذا النبي العربي؟!

كل هذا بأسلوب لين وطريقة هادئة ناعمة لا يمكن أبدا أن يتصور العقل معها أن الرجل يهين الإسلام ورسوله في شيء.

بل ثبت له في صفحات أخرى من الكتاب تصويره للمسلمين في صورة عصابات وقطاع طرق، وأزال عنهم دوافع الفتح النبيلة السامية، وما اكتنفها من نشر العدل والتسامح والمساواة وقهر الظلم والعدوان الذي وقع على البشر، فلم يكن جهادا وإنما طمع ونهب واغتصاب، بل زعم هذا الأفاق بأنك لن تجد قصصا تاريخية ملطخة بالدماء أبشع من قصة فتح المسلمين للهند.

ناهيك عما يثيره الكتاب من شبهات ضد القرآن الكريم من نظرته إليه بأنه كتاب لا صلة له بالسماء وأنه مقتبس من معلمين من أهل الكتاب وأهواء شخصية واضطرابات نفسية وصحبته لأحبار مطلعين على أخبار الأولين وقصص السالفين في التوراة والانجيل بل وحفاوته العظيمة باليهود ودفاعه عنهم ولغته الحانية في ذكرهم وتبرئتهم من كل شر وسوء، فهو يقول مثلا: " كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير

النقية، وأما نساؤهم وهن أجمل نساء الأمم القديمة.. وكانت اللغة العبرية أعظم اللغات الرنانة على ظهر الأرض" ويقول كذلك: "ولم ير العالم شعبا آخر أولع بالفضيلة كولع اليهود" ورأى كذلك أنه لشدة عدوانية المسلمين لم يطل حب اليهود من أهل المدينة المنورة لهذا الدين ذي النزعة الحربية"

وحسنا فعل الأزهر الشريف حينما نشر مؤخرا كتابين يظهران عوار هذا الكتاب الذي خدع جماهير عريضة من المثقفين، ويردان على شبهاته المغرضة ويكشفان مكره المتسربل بزي الإنصاف والموضوعية.. وهو الأمر الذي يجب أن نعلنه للجميع فنحذرهم من خطورة هذا الكتاب فيما يتعلق بالحديث عن الإسلام واليهود.

وإن المرء ليحزن أن يكون الحديث عن الإسلام في أفواه عدد من المثقفين مأخوذا من كتاب خطه صهيوني جاهل بحقيقة الإسلام، بينما يهجر هؤلاء المتكلمين كتب الإسلام المعتمدة كسيرة ابن هشام وزاد المعاد وكتب السنة الصحيحة، التي لا تمثل في نظرهم شيئا من العلم المفيد، بينما الكتاب المكذوب الذي يعج بالإفك والزيف هو عين الثقافة وأساس المعرفة.

إثراء لا إلهاء

لا نبرح في كل يوم يمر علينا، إلا ونجد أحد المرجفين وأهل الزيغ والشتات من العلمانيين واليساريين أو الملحدين، يرمينا بشبهة من الشبهات تطعن في ديننا، وتسئ لملتنا وتشوه عقيدتنا وتراثنا.

وأمام هذا الطرح الغاشم، نجد كثيرًا ممن يرون في عقولهم حكمة ونضوجًا ورشدًا، يحثوننا وينصحوننا: أن نهمل هذه الشبهات ولا نرد عليها، ونرميها وراء ظهورنا حتى نميتها ونقضي عليها، لأن ردنا عليها يحييها، ويؤججها، وينمي أو يضخم وجودها وتأثيرها.. ثم يقولون:

أميتوا الباطل بالسكوت عنه.

وأمام هذه الحكمة البادية والمحمودة نوعا ما، نطرح سؤلا لابد منه وهو: ماذا لو ألقى هؤلاء المرجفون شبهاتهم، وهناك ألوف وملايين يتابعونهم، ثم لا يجدوا من يرد عليهم؟ كيف يكون الوضع والحال؟

لا شك أن أكثر هؤلاء المتابعون سيقتنعون بكلامهم ويتأثرون بزيوفهم وبهتانهم، أو يقفوا حائرين عاجزين عن تبين الرشد والحقيقة، وهنا تكون الطامة الكبرى ويكون الإشكال المؤلم.

مع العلم والوضع في الحسبان أن غالب الناس يغط في إلهاء عظيم، ويقضي أحدهم أغلب وقته في تتبع الفارغ من الأمور التي لا تفيد، فماذا يضر لو رد العلماء والمفكرون على هذه الفرى وتابعها الناس واستفادوا وتعلموا؟

أعتقد أنها لن تكلفهم شيئا ضارًا، أو تصرفهم عن الاهتمام بقضايا أمتهم الكبرى، حتى وإن كان هؤلاء يريدون من وراء شبهاتهم صرف عقول الناس عن المحن الكبرى، لأن الحقيقة أن الناس بطبيعتهم منصرفون ولاهون.

إنني أرى أن مثل هذه الدعوات في هذا الوقت وهذا الزمان، نوع من السلبية والتخاذل عن بيان الحق ونصرة الحقيقة، وليست كما يقال: خرقا للأولويات وهروبًا من كبرى الاهتمامات.. كثير من الشبهات التي ألقيت ولاقت ردا وافيا من العلماء والمفكرين المحترمين، أفادت الناس وعلمتهم، وزادت من مقدار وعيهم وإدراكهم بحقيقة مسارهم الديني، ثم كان من أعظم نتائجها أن تبينوا زيف المرجفين، الذين فقدوا الثقة في كلامهم وآرائهم، وصار انطباعهم عنهم أنهم مثال للجهل وقلة العلم وانعدام الفهم.

أرأيت كيف كان المكسب عظيما؟

كان ابن تيمية رحمه الله ينشغل بحرب البدع والمحدثات، ورد المنحرفين من الصوفية والفلاسفة، في الوقت الذي كان التتار فيه يدقون أبواب العالم الاسلامي وينذرون حياة الأمة بالضياع والهزيمة، ومع هذا ورغم انشغاله بالقضية الكبرى التي تهدد مصير الأمة وتعبئة الناس ضد العدوان المغولي، لم يمنعه هذا أن ينشغل بهذه المحدثات من البدع والرد على الشبهات.

وحينما ظهر كتاب آيات شيطانية لسلمان رشدي، قام الناس بلوم الخميني أن قام بإهدار دمه وأعلن جائزة لمن قتله، حتى هلل الناس له، واستقبله الغرب وجعله من كبار المفكرين وطبع كتابه آلاف الطبعات، بسبب تأجيج الخميني للموضوع.

لكننا نقول: إن الزمان الان يختلف والأيام تغيرت، وصار هناك فضائيات وإنترنت، وصحف سيارة، وكل ما يقال يذاع وينشر وتتلقاه عقول المتابعين، وإذا لم يكن هناك من رد ودفع، نالت هذه الطعون من إيمان الناس ومداركهم.

أرى أن مثل هذه الوقائع ما هي إلا محرك ثقافي ودافع لعملية الوعي، ولعلها تذكرني قديما بما كان من أثر الحراك الأدبي للمعارك الأدبية في القرن الماضي، وما أحدثته من ذيوع كبير للأدب والفكر والتذوق المعرفي.

إنها شبيهة بهذا الميدان، فلا تجعلوا حكمتهم وشدكم يكون سبيلا لتضييق الأفق، ونشر الإفك، وإذاعة السلبية والتخاذل.

علما بأن المسألة ليست دعوة للمبادرة بالرد على كل من هب ودب، مشهور أو مغمور، ولكننا لا نركز إلا على المشهورين منهم والذين لديهم جمهور كبير يمكن أن يتأثروا به، أو أحدثوا بأطروحاتهم بلبلة في العقول.

دعوا الناس يقرؤون ويناقشون ويتعلمون ويفهمون ويدركون.

اتركوا العلماء يردون ويدافعون، وينصرون الحق ويظهرون الحقيقة.

المسلسل الجسور

يبدو أن هذه الحقبة الزمنية التي نعيشها، ليس لديها استعداد أن تدعم بشكل وافر تراث المسلمين، وتؤمن بعظمة تاريخهم وتعترف بعظمة رجالهم، الذين يجسدون الطريق للإيمان بجسارة وسمو هذه الأمة، فقد على صوت الناعقين من الملحدين والعلمانيين المتطرفين، وكل يوم يخرج من صفوف إفكهم من يهين رموزنا، ويسفه أبطالنا، ويقضي بدعواه على ماضينا البراق.

وتنخدع جحافل من الجهال بهذا الافتراء، وهم أولئك الفقراء بمعرفة ماضيهم وأمجاد سلفهم، تراهم يتحمسون للانقلاب عليه والتفريط فيه، بل والطعن عليه ومحاولة التبرؤ منه، باسم الحداثة تارة والتنوير تارة أخرى، وقد ساهم الإعلام المعادي في تنمية هذا التوجه وإزكاء هذا التصور الخاطئ، فإذا أردت أن تكون متنورًا مفكرًا حداثيًا ناهضًا، فما عليك إلا أن تركل بقدمك كل ما يمت لماضيك بصلة، اركل كل شيء حتى ولو كان هذا الماضي مرتبطا بدينك ويدعم وجوده.

أعرف قطاعات كبيرة ممن يحسبون على المثقفين، رباطهم بدينهم هش ومبتور، فبخلاف جهلهم بعظمة أمتهم وتاريخ دينهم، لا تجد في نفوسهم روحًا تحمل أي انتماء لهذه الأمة أو اعتزاز بها، كما تجد لهم أذنًا لا

تقبل أن تستمع لأصوات الحق التي تردهم لعرينهم، آذانهم فقط لا يستهويها إلا سماع أصوات التمرد على هويتهم.

حضرني هذا الخاطر، وأنا أستمع لمسلسل (موصى بن نصير) بطولة الفنان الراحل عبد الله غيث، الذي بحثت عنه كثيرا في دهاليز اليوتيوب، فلم أجده حتى وجدته قد أدرج مؤخرا، ففي فترة الثمانينات والتسعينات كانت هناك بقية حية من إيمان بهذا التراث، وبعظمة هؤلاء القادة الأماجد، وكان الإعلام المصري لا يرى غضاضة، أن ينظم مسلسلات تحمل تاريخهم وتجسد حياتهم الناصعة بالإيمان بجسارتهم وعظيم ما قدموه للأمة.

كان هناك في هذه العقود السالفة، بقية من إيمان وقناعة وشعور بالانتماء للإسلام وأمته وماضيه، ومهما كان للوجود العلماني من أصوات ونداءات، إلا أنها كانت لا يمكن لها أن تجور على هذا الانتماء وتدعو للتبرؤ منه.

المسلسل جسور ويحفز الهمم، ويبصر المرء بدوره في خدمة هذا الدين، ويؤجج الشعور بعظمة ماضي هذه الأمة وعبقرية رجالها، وإننا أمام هذه الموجات العاتية الهادرة من التغريب البشع والهجوم المستعر، فكرت كثيرًا أن نعيد الترويج لمثل هذه الأعمال الدرامية التي تخدم هويتنا، وهي رغم ما يشوبها من بعض مشاهد العواطف والغرام، إلا أن مكاسبها عظيمة النفع والفائدة، أذيعوها وذكروا الناس بأمجادكم.

ابن رشد المفترى عليه

بعد كثير من البحث ومعاينة كثير من الشبهات التي أثارها العلمانيون ضد كل ما هو ديني وإسلامي، تبين لي أن القوم يفرزون كثيرًا من الجهل والافتراء الذي قد يصل أحيانا إلى حد التهريج والتخريف والعبث والترهات.. نعم.. القوم فيهم جهل كبير عنيف، ولا يتحرجون إن كشفه الناس فيهم.

ولكن.. ليكن في علمك أنهم على قدر ما فيهم من جهل وسفه، ففيهم مكر شديد، يصل إلى حد المؤمراة والخبث في التدبير والكيد والتخطيط.

كنت قديما قد كتبت أن من أهم أسس التفكير الخبيث التي يلجؤون إليها، أن يختاروا من علماء المسلمين من يوهموك أنه رمز العلمانية وشارة التنوير وضحية التشدد والأصولية والتعصب والانغلاق، وكل ذلك محاولة منهم لصبغ شبهاتهم بصبغة شرعية، وأن طريقهم المعوج له من يمثله من وجوه الاستقامة.

هكذا فعلوا مع الإمام محمد عبده، وقد يصيبك العجب حينما تجد علمانيا يتحدث عن الإمام محمد عبده ويحاول أن يصور لك أنه واضع

أسس التنوير والعلمانية، وكل فكر من أفكارهم المنحرفة، وللأسف يأتي من يصدق هذا الكذب ويؤمن به ويعتقده، ولو أن الإمام محمد عبده كان حيًا لأقام على هؤلاء حربًا ضارية لا رحمة فيها، ولأعلن رفضه لكل أراجيفهم.. لكن مشكلتنا الكبيرة أن الجهل صارب فينا بجذوره، وهو المناخ الذي يتيح لهؤلاء أن ينشروا أكاذيبهم.

ولم يكن الإمام محمد عبده وحده ضحية الكاذبين من العلمانينن، بل سبقة الإمام العظيم أبو الوليد بن رشد، وهكذا هم دائما يحاولون خداعك بأن لهم من يمثلهم قديمًا وحديثًا، وأن صورتهم لها أصولها في التاريخ القريب والبعيد.

ولك أن تتعجب حينما يشبه أحد الكتاب المخرفين رمزًا من رموز العلمانية واللادينية وقد أثار جدلا وصخبًا بجهله وغروروه، بأنه ابن رشد المرحلة، رجل يتجرأ على نصوص القرآن وينكرها ويتهجم على السنة وينفيها، ثم يشبهه بابن رشد، وكأن ابن رشد كما صُور لهم رأس المنفلتين وعمدة المتمردين.!

من أين استمد هؤلاء مثل هذه الصورة المغلوطة عن الإمام ابن رشد؟ وهو الإمام الجليل الشأن عظيم القدر، الذي كان يحكم بالقرآن والسنة، وله كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد من أعظم أسفار الفقه الإسلامي جليلة المقام، والتي تدل على علم ثاقب واحترام تام وكامل

للإسلام وثوابته الدينية؟! فمن أين استمد هؤلاء هذه الصورة الغريبة عن ابن رشد وتخيلوا أن الرجل متمرد على الله ورسوله؟

يقول الدكتور إبراهيم عوض:

"وكان ابن رشد يؤكد أنه لا تعارض بين الدين والفلسفة، بما يدل على أنه كان ينطلق من النصوص الدينية ولا يدعو إلى الثورة عليها. وكتاباه: "مناهج الأدلة" و"فصل المقال" ينمان عن إيمان بالله سبحانه وباليوم الآخر وبالقرآن الكريم وبالرسول الذي أتى به، أقول هذا لأن الببغاوات يظنون أنه، رحمه الله، كان متمردا على الإسلام، ولذلك يمجدونه. وهم في هذا إنما يرددون ما كان بعض الأوربيين في عصر النهضة يقولونه عنه، وما أكثر من في الحبس من مظاليم! وكان هناك مدرس يحاضرنا في الجامعة في مادة "الفلسفة الإسلامية"، ويلح فى محاضراته على هذا المعنى، فكنت أذهب إلى المكتبة وأرجع إلى ابن رشد فألفيه رجلا مسلما صحيح الإسلام، فأسأله في المحاضرة: كيف تقول هذا عنه يا دكتور، وكتابا "مناهج الأدلة" و"فصل المقال" يقولان عكس ما تدعى عليه؟ فيجيبني بأن آراءه الحقيقية موجودة فى شرحه لأرسطو، وكان هذا الموقف ولا يزال مبعث استغراب عندي، إذ المعروف أن ناقل الكفر ليس بكافر، فمن باب الأولى أن نقول: إن شارح الكفر ليس بكافر أيضا، بغض النظر عن عقيدة أرسطو في حد ذاتها، فهذه مسألة أخرى."

في عام ١٩٩٧ أنتج فيلم المصير، سيناريو وتأليف المخرج يوسف شاهين وهللت له الدنيا وحصد الجوائز وتحدث عنه الجميع ومن فرط الهول خيل إليك أن بعثا جديدًا قد حدث، وأن الفيلم حقق الانتصار العظيم الانتفاضة التي تجاهد من أجلها العلمانية، ولأن واضع الفيلم رجل علماني صليبي فقد أساء لتاريخنا ورموزنا وحرف الصورة والسيرة وشوه الحق والحقيقة وصنع تاريخًا يخصه هو ولا يمس الحقيقة في شيء.

لم يخدم به العلمانية أو الفكر المنحرف الذي يقوم على حرب الدين، وإنما خدم أكثر ما خدم طبقة الممثلين والرقاصين والطبالين، وبين أن هؤلاء على أيدهم الحل من كل مشكلات الحياة والمجتمع والناس.

ثم ساند هذا التخريف حملات إعلامية ضخمة أوهمتنا أن هذا العبث والتهريج معجزة فنية لا مثيل لها.. نعم حاولت أجهزة الاعلام أن تصور للعالم أن فيلم المصير معجزة فنية لا مثيل لها.

وأذكر يومها أن أفضل وأحسن رد على هذا السخف الممجوج، كان رد الكاتب الكبير فهمي هويدي بمقالة رهيبة في الأهرام تحت عنوان (فضيحة ثقافية) نوه فيها بجناية الفيلم وتشويهه للتاريخ وافترائه على ابن رشد، فالفيلم يحمل قضية أن الرقص هو الحل، وكانت أحداثه تدور حول ابن رشد وكيف كانت ثورته على الجامدين والمتشددين؟ الذين

جعل من رموزهم الدينية القاضي عياض وهو الذي لم يعاصر ابن رشد، ويعد من أكابر وعظماء علماء الإسلام، لكن يوسف شاهين بعبثياته جعل منه زعيم المنافقين والمنحرفين والمكفرين.

ساق هويدي شهادة الدكتور عاطف العراقي بأن الفيلم من الناحية التاريخية نوع من "البكش" أو التدليس، وأضاف إن أي مشاهد من بلاد المغرب التي تعرف ابن رشد جديًا، سيعتبر الفيلم "فضيحة" لا تغتفر بحال.

الفيلم أساء إلى ابن رشد إساءة كبيرة ومسخه بجرأة تثير الدهشة، حتى قدمه في صورة على النقيض تمامًا مما كان عليها.

يذكر هويدي ما قاله العقاد عن ابن رشد قوله: " لم يذكر قط عن القاضي الفيلسوف خبر من أخبار التبسط لمجالس اللهو والطرب، مما استباحه جملة من أبناء عصره، ومنهم طائفة من العلماء والحكماء، بل كان يتعفف عن حضور المجالس، وبلغ من تعففه عما يراه خليقا بعلمه ومكانه من القضاء أنه أحرق شعرا نظمه في الغزل أيام شبابه"

يقول هويدي: هذا الرجل الوقور والجاد قلبه يوسف شاهين رأسا على عقب، فقد أسقط عنه لقب الفقيه، ولم نره طوال الفيلم يذكر الله أو ركع له ركعة واحدة، وقد قدمه بأنه محب للأنس والطرب والمجون، ويقول: الرقص والغناء هما تعبير عن حب الحياة، بل قام يغني

بصوت خفيض مع الأسرة الغجرية، وهو الذي كما ذكر سابقا كان يتعفف عن تلك المجالس ولم يذكر عنه قط خبر من أخبار التبسط لمجالس اللهو والطرب.

هذا هو الإمام ابن رشد ضحية المخرفين المنفلتين من العلمانيين وغيرهم من أهل الفسق والمجون.

جاءت جنايتهم على الرجل مستغلين جهل المسلمين بتاريخه فصدقهم بعضهم وجعل ابن رشد آفة الانفلات العقلي المصادم للشريعة، وما كانت تلك حقيقة الرجل وإنما كان الافتراء كبيرًا على عالم فيه مسلم يحترم دينه وثوابته ولم يكن عليها من المتمردين المنكرين.

النظرة الايجابية

النظرة الايجابية في كثير من الأشياء والرؤى، قد لا يمتلكها إلا إنسان كبير الفكر واسع التأمل عظيم العقل بعيد النظر حسن التقييم.

نعم فليست كل الأمور في الحياة تسير على طريق واحد، أو تقاس بنظرية الأبيض أو الأسود، وإنما بالنظر والتقييم بين المكسب والخسارة، وهناك فقه الموازنات الذي يجب تعلمه، وإدراك حكمته، والذي يعقد فصوله بين المقارنة بين المفاسد والمفاسد، والمصالح والمصالح، والمفاسد والمصالح، ولعل نظرتنا الايجابية التي نتناولها

ونتحدث عنها الآن تتعلق بالمقارنة بين المصالح والمفاسد، فقد تكون هناك مفسدة بين كثير من المصالح، وقد تكون هناك مصلحة بين ركام من المفاسد، وهو ما يستدعي عقلا حكيما يناقش ويتأمل ويعتبر ويقرر ويحكم ثم يختار.

أحد شيوخنا الأماجد عرضت عليه مجلة منحلة غير ملتزمة أن يكتب فيها مقالا دوريا، فعاب عليه أصدقاؤه وتلاميذه هذه الخطوة، لكن الرجل له عقل الحكيم، رأى في هذه الخطوة مصلحة عظيمة حينما يتطلع إلى فكره ونصائحه الدينية، جمهور هذه المجلة الذي يفتقد الالتزام ويعاني الجهل بالدين ولا يلتاك روح التدين.. وحينما ظهر كتاب مختارات من تفسير القرطبي لتوفيق الحكيم، كتب مفكرنا الكبير أنور الجندي في كتابه إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الاسلام: "وبالرغم من أن توفيق الحكيم قد لخص تفسير القرطبي، وظن بعض من يأخذون بظواهر الأمور أنه في الطريق للتعرف إلى الإسلام، إلا أنه لم يلبث أن كشف عن تلك المحاولة المسمومة التي تطالب بتطوير الشريعة الاسلامية"

والحق أن حكمنا على المحاولة يتخطى الرجل نفسه، والذي قد يعتقد كثير منا أنه لا أمل منه، لكن نظرتنا تبصر هذه الجماهير الشغوفة بكتبه، والتي لا تقترب من أي كتاب ديني يتناول قيم الإسلام، ولعل اسم توفيق الحكيم، يكون جاذبا لها أن تتعرف على قبس من نور هذا

الدين، حينما تشاهد وتقرأ وتعايش هذه المختارات النورانية من تفسير القرطبي.

وحينما قام شيخ الأزهر مؤخرًا في نقاشه الجسور الذي صرع فيه الدكتور الخشت فكريًا، كنت تشعر وقتها كمتدين بانتصار الفكر الاسلامي على الفكر الحداثي ورموزه، لكن طائفة منا لم تنس ولم تغفل تاريخ شيخ الأزهر السياسي، وجعلت منه طريقا لاستقلال ما فعله والاستهتار بما أنجزه، وأن هذا السجال وهم وهباء لا قيمة له، ونحن نقدر ما يرمون إليه، وهم يريدون من الرجل أن يكون كالعز بن عبد السلام أو ابن تيمية، لكنه بعيد عن صفات هذه النجوم، ولا ينال أبدًا ما نالت من تعظيم في نفوس المسلمين، لاختلاف الظروف والعصر والأوضاع، لكنه شيئا طيبًا ما صنعه، ويحسب للإسلام قبل أن يحسب لشخصه هو، فالانتصار للتراث والفكر الاسلامي قد تحقق، ولا يهمنا على يد من تحقق.

وفي أيام ناصر ظهرت الدعوة للفكر القومي وحاولت تفسير كل شيء من مفاخر المسلمين على أنه قومي وعربي وليس إسلاميا، ولم يكن كثير من الغيورين على الدين من علمائه ومفكريه يستطيعون أن يتكلموا، وإلا تعرضوا للتنكيل من النظام والقوميين الذين سيطروا على كل شيء في مجالات الثقافة والتوجيه والاعلام، ومن ثم رأى هؤلاء الحكماء، أن يكتبوا عن أبطال الإسلام كطريق للتعريف بهؤلاء العظماء،

حتى ولو تم تقديمهم بصورة قومية، فلا مانع من أن تكتب على الغلاف (فلان الفلاني البطل العربي الكبير) وفي الداخل تكتب ما تريد عن تأثره بالدين وتأثير الدين عليه، وانطلاق حركته باسم الاسلام.

يستنكر كثيرون مظاهر العري والغرام والقومية في فيلم صلاح الدين الأيوبي، لكنني أنظر فيه لكثير من الايجابيات التي توقظ العقل المسلم أو العربي بما يحاك له من مؤامرات صليبية، تطمع في بلاده وتريد محو وجوده، بل تعرف بهذا التاريخ الدموي العدواني للحملات الصليبية، وأوقن أن الفيلم في جملته يبث كثيرا من المفاهيم المغلوطة، ويشوه الصورة، ويظهر الحقيقة بنمط زائف، لكنه قد يبعث من الرسائل المهمة التي لا يمكن إغفالها.

ولعل كلامي هذا سيكون منكورًا من الصداميين الذين لا يؤمنون في حياتهم بالصورة الرمادية، ويختارون نمط حياتهم على طريق واحد، لا يقبلون بأي كسب قد يأتي به طريق ملتو، وهؤلاء بعيدون جدا في نظري عن ضغوط الحياة وظروفها التي لا تترك الحرية لأصحاب الفكر الرصين أن يعلنوا غايتهم، وأنه لابد من العمل بحكمة وتدبير حتى يصل صوتك، الحكمة والذكاء والمواراة أمور لا ينكرها ديننا.

المحتويات

الموضـــوع **الصفحة**

مقدمة ٥
حائر بين الرأي والقِيم ٧
خدعة التخلف الحضاري ١١
اللعب بورقة الهوية ١٥
محنة الذوق العام ٢١
المعتزلة ليسوا كفارا ٢٥
المراجعات المانعة ٢٩
خناجر الماضي ٣٣
جريمة التعتيم ٣٩
علمانيون ينصفون الإسلام ٤٣
مذبحة فكرية ٤٧
دافع عن وطنك بأدب ٥١
فقه التعامل مع الأعلام ٥٥
الشرقاوي له رأي آخر ٥٩
فلتذهب العائلة إلى الجحيم ٦٧
تذكروا الله في إبداعكم ٧١

الزم جدك أيها الأديب ٧٥
يا جماعة إنه بَشر ٧٩
لعل هناك مالا يروقك ٨٥
قوة التأثير ٨٩
المرأة التي خانها الرجال ٩٣
الذين حرقوا المعرفة ١٠١
الحق فوق كل اعتبار ١٠٥
المنطقة الرمادية ١٠٩
يا دكتور ما هكذا تورد الإبل ١١٣
محنة مصر ١٢١
فرق بين المثقف والمتخصص ١٢٧
غير رأيك لا قيمك ١٣١
مدارسنا تحتفي بشيوعي ١٣٩
أهلها أهل شر! ١٤٣
آهٍ من التعاطف ١٤٩
الأزهر يرثي مسيحيا ١٥٣
السياسة عالم بغيض ١٥٧
حضارة الإرهاب ١٦٣
الرافعي وإشكالية الحب والدين ١٦٧
الرجعة الهيكلية الإسلامية ١٧١

الأهرام تفاجئنا ١٧٥
لا تقرأوا كلامي ١٧٩
خطر السيرة الذاتية ١٨٧
حكمة تعلمتها ١٩٣
لا يكادون يفقهون حديثا ١٩٩
السلفيون يطفئون الإبداع ٢٠٣
رجالنا أعظم من رجالهم ٢٠٩
زلزال آيا صوفيا ٢١٣
قفزة اللقطاء ٢١٧
صدمة أم قناعة ٢٢١
انتصر بأدب ٢٢٥
احذروا هذا الكتاب ٢٢٩
إثراء لا إلهاء ٢٣٥
المسلسل الجسور ٢٣٩
ابن رشد المفترى عليه ٢٤١
المحتويات ٢٥١

***